المجتمع

دروس ملهمة للأسرة المسلمة

تأليف د. محمد البربري



دروس ملهمة

للأسرة المسلمة

كل الحقوق محفوظة

المجتمع

الكويت ص.ب (٤٨٥٠) الصفاة - الرمز البريد (١٣٠٤٩)
الموقع الإلكتروني: www.mugtama.com
البريد الإلكتروني: info@mugtama.com
تليفون: ٢٢٥١٤١٨٠ ٩٦٥ + - ٢٢٥١٩٥٣٩ ٩٦٥+

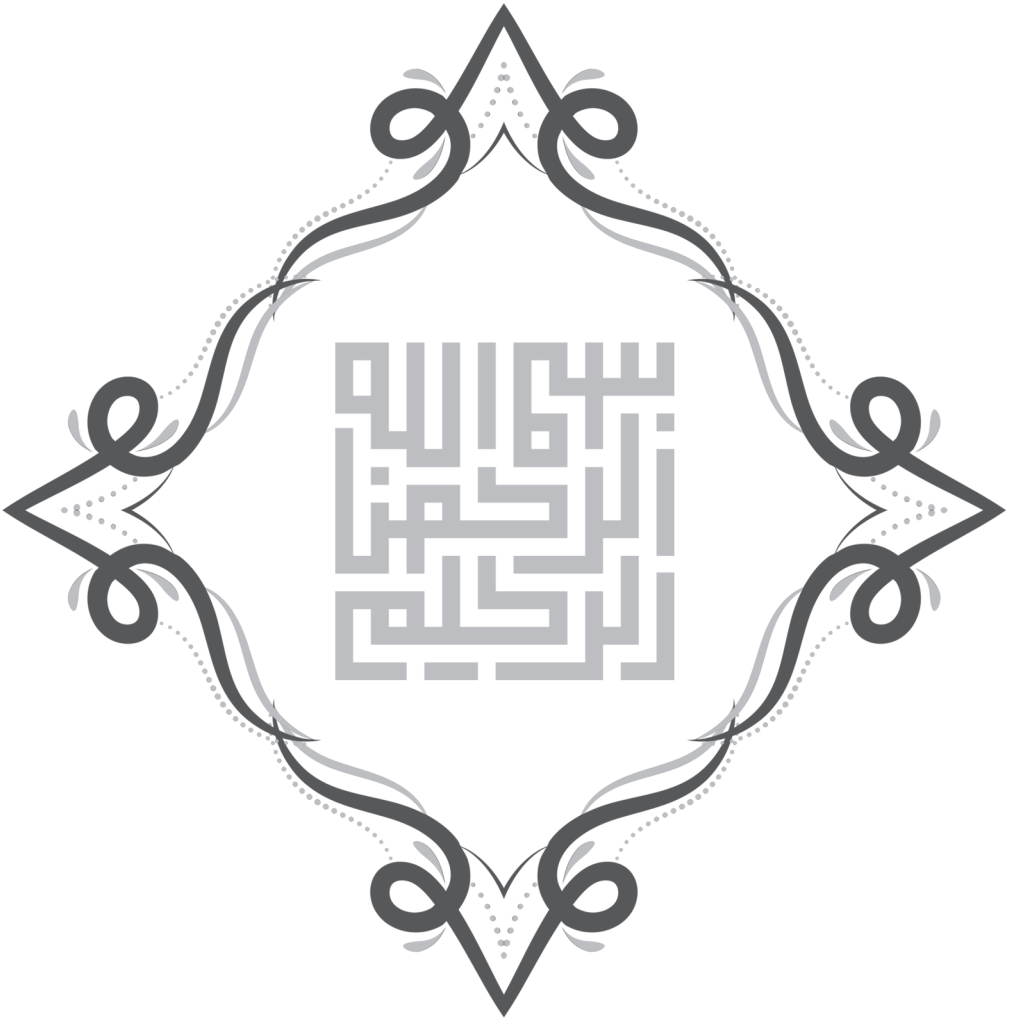
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة، أو أى وسيلة نشر أخرى، أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

دروس ملهمة
للأسرة المسلمة

د. محمد البربري

١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥

مجلة المجتمع



تقديم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على الداعية الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الميامين، واحشرنا اللهم في زمرة عبادك الصادقين، واجمعنا بأصدق دعاتك الذين ارتضيتهم لحراسة الدين، وبعد..

فلقد طلب مني أخي الأكبر فضيلة د. محمد البربري تقدمة هذا الكتاب لحسن ظنه بي، ولأني كنت شديد الإلحاح عليه أن يستعمله الله قبل انقضاء الأعمار، بأن يدوّن بأحبار قلمه ما يفتح الله به عليه مما يقدح في ذهنه من تأملات فيما يقع عليه من درر الآثار والأخبار، فلقد رأيت فتح الله عليه في مجالس القراءة التي جمعتنا وهو يطير فرحاً حين يلتقط من صفحات الكتب عجيبة نادرة وكلمة آثرة، وعبارة آخذة، كفرح الصياد بفريسته، والصغير ببغيته، ثم هو يسرع في تدوينها، وقدح الذهن في حسن سبكها ونظمها.

ويتنوع هذا بين محاضرات ومقالات تجمع بين البلاغة الأدبية، والموعظة الدعوية، والملامسة الواقعية، والخبرة العملية، فهو متألق في إيصال القارئ إلى هدفه من أقرب طريق، دون قصر مخل أو تطويل يترك في نفس القارئ الملل والضيق، فالكاتب فارس في ميدان الدعوة لطالما تعلمت منه براعة الاستهلال بتصدير مقالاته ومحاضراته بما يلفت الأنظار، ويحضر الأذهان بقوله: «من جميل ما قرأت»، أو «من روائع ما كتب الكبار»، أو «كلمة

راقت لي»؛ ليأخذ القارئ والمستمع في رحلة ملهمة تعينه على الشعور بالنهم في أن يكمل بنفس اللذة التي عاينها ابتداء آخر ما تقع عينه عليه من كلماته انتهاء.

وبين ثنايا مقالات كتابه «دروس ملهمة للأسرة المسلمة» ترى، أيها القارئ الكريم، صدق ما أمدحه به، فقد عاينت الكتاب في مرحلة البناء والتأسيس حتى اكتمل بتلك المعاني الرائعة التي ستجد في صحبتها خير جليس.

فإلى عقلك الزاكي كن متأملاً لذيذ ما أورد فيه من حكم وآثار، واجعل من عبره مشاعل هداية لأسرة تقتفي أثر من جاء على ذكرهم من الأخيار.

والله أسأل أن يمنّ على أخي ببركة الأعمار، وأن يظل مداد قلمه كالسيل المدرار، وأن يستعمله وذريته وآل بيته وأحبابه والمسلمين في طاعة العزيز الغفار.

محبكم في الله

محمد الفخراني

الإمام والخطيب بوزارة الأوقاف

دروس ملهمة للأسرة المسلمة

الناس في أصل الخلقة جُبلوا على التوحيد وفُطروا عليه، وهذا ما تنطق به آيات القرآن الكريم وتبرهن عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأَعْرَاف:١٧٢]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم:٣٠].

وهذا المعنى كان واضحاً أيَّما وضوح في أذهان الصحابة الأجلاء ﷺ، فقد مر عمر بن الخطاب ﷺ بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت[١].

ونداء الفطرة مغروس في نفس المسلم يدفعه إلى الهدى، ويرده عن الردى، ويبصره بالطريق إذا ضل أو غوى.

زهرة من بستان السُّنة:

من حديقة السُّنة المطهرة نقتطف هذا القبس النبوي الشريف، فقد قال النبي ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه أو**

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٢٣١).

يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «فطرة الله التي فطر الناس عليها»[1].

وبنظرة متأملة في ظلال هذا الحديث النبوي الشريف، تظهر عدة دروس دعوية وتربوية مهمة، منها:

أولاً: أن القاسم المشترك بين الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم هو الفطرة السليمة، وهي صبغة الله التي صبغ الناس بها، وهم بعد ما زالوا في عالم الذر وفي دنيا النطف، وهذه الفطرة هي الأساس القويم، وأن البعد عنها يؤدي إلى الانحراف عن الجادة والطريق المستقيم، وعلى المربي ضرورة الحفاظ على هذه الفطرة بالطاعات والصالحات، والحذر كل الحذر من انتكاسها بالرذائل والمنكرات.

ثانياً: أن للبيئة التي ينشأ فيها الإنسان النصيب الأكبر في تقويم سلوكه وتهذيب أخلاقه وصناعته فكرياً ونفسياً وعاطفياً، وكم في البيئات من مفارقات عجيبة؟!

فمن الناس من ينشأ في بيئة قوامها تلاوة القرآن الكريم وحب الصالحين، والألفة والمودة والتراحم ولين الجانب وطلاقة الوجه وحب الخير للناس، وديدنها جميل الفعال وكريم الخصال، فهذا مورد عذب وماء رواء، والنتاج الذي يخرج منه يرتوي من معين مائه وعذب فراته.

ويقابله من يخرج في بيئة قوامها اللهو والمجون، وتتسم بالكبر والعُجب والتيه والغرور وضياع الأوقات والانغماس في الشهوات، فينشأ ويترعرع على

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٣/ ٢٧٠).

هذه الخصال المذمومة والآفات المهلكة والرذائل الممجوجة، لا هدف له ولا غاية عنده، إنه فعلاً هياج بلا نتاج، وهيهات أن يستقيم الظل والعود أعوج!

ثالثاً: أن الوالدين هما قائدا السفينة ومحركا الشراع؛ فإما إلى السلامة، وإما إلى الندامة، وليكن معلوماً أن الطريق إلى تربية الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نُقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوّد الخير وعُلّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدِّب، وإن عُوّد الشر وأُهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه والوالي له، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التَّحۡرِيم:٦].

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوّده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية؛ فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره، ومهما رأى فيه من مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته[1].

ويبقى الوالد هو القيم القائم على بيته، وهو رب الأسرة المسؤول عنها في الأولى والعقبى، وعلى القائد أن يكون ماهراً فطناً يدرك طبيعة الطريق، وإلا غرقت السفينة في عباب البحر وابتلعها اليم وصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس.

(١) تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (٢/ ١٦/ ١٧).




صاحب البصمة الأولى

الطاووس طائر يجمع بين الجمال والدلال؛ الجمال في هيئته، والدلال في مشيته، يتحرك بعزة وأناة، ويمشي بعُجْب واختيال، فقلَّده بنوه فسطَّر الأصمعي شعراً يعتبر من روائع الأدب الرمزي:

مشـــى الطاووس يوماً باختيال ... فقلَّد شـــكل مشـــيته بنوهُ

فقال علامَ تختالـــون؟ قالوا ... بدأت بـــه ونحـــن مقلدوهُ

فخالف سيرك المعوجَّ واعدل ... فإنَّـــا إن عدلـــت معدلوهُ

أما تـــدري أبانـــا كل فرع ... يُجاري بالخطى مـــن أدّبوهُ

وينشـــأ ناشـــئُ الفتيان منَّا ... على ما كان عـــوَّده أبوهُ[1]

ومن عالم الحيوان إلى دنيا الناس، حيث إن العقلاء يقررون أن الإنسان ابن بيئته، وأن الشيء من معدنه لا يُستغرب، دارت هذه المعاني في خاطري عند معايشة قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ [الأَعْرَاف:٥٨]، يقول العلَّامة ابن جرير الطبري عن تفسيرها: «والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحياة بإذنه، طيباً

(١) أرشيف ملتقى أهل الحديث (١٢٥/ ٣٣٤).

ثمره في حينه ووقته، والذي خبث فرُدِئت تربته، وملحت مشاربه لا يخرج نباته إلا نكداً؛ يعني إلا عسراً في شدة»[١].

إيحاءات القرآن الكريم ودلالته:

من الإيحاءات القوية والدلالات العميقة التي تومئ إلى هذه المعاني السابقة قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نُوح:٢٦-٢٧]، ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكَهف:٨٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور:٢١].

في الآية الأولى دليل على أن الحية لا تلد إلا حُيية، وأن الأصل المعيوب لا يُسفِر عن أثر خالٍ من العيوب، «فقد أُلهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه، وأحياناً لا يصلح أي علاج غير تطهير وجه الأرض من الظالمين؛ لأن وجودهم يجمّد الدعوة إلى الله نهائياً، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين، ثم إنهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيه الكفار، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها»[٢].

وفي الآيتين الثانية والثالثة دليل أكيد على أن الرجل الصالح يُحفظ في

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٤٩٥).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧١٧).

ذريته بسبب حسن التربية والتهذيب والتوجيه، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة يوم القيامة لتقر عينه بهم.

بين الفضيل وولده:

الفضيل بن عياض قامة من القامات، وسيد من السادات ذاع صيته في الزهد والورع، وسطع نجمه في هجر الحرص والطمع، كان قدوة صالحة لولده، رباه من طفولته على كريم الخصال قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، قال له يوماً: لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال، فقال ابنه عليّ: يا أبتِ، إن الحلال عزيز، فقال: يا بني، وإن قليله عند الله كثير[١]، والطفل الذي يتربى على الصدق وطلب الحلال حتماً سيكون له مع الله حال.

ظل الفضيل يربي ولده علياً ولكنه مُعْرض عنه، فاستعان بالله وظل يدعو له لمدة ثلاث سنوات وكان يقول في صلاته: «اللهم إني اجتهدت في تربية عليّ فلم أقدر فربِّه أنت لي»؛ فتحول بفضل الله إلى آية في الزهد والعبادة، وكان يصلي حتى يزحف إلى فراشه ثم يلتفت إلى أبيه فيقول: يا أبتِ، سبقني المتعبدون، ومات وهو ساجد في الصلاة، وكان أبوه يقول: رحم الله حبيبي من كان يعينني على الزهد والعبادة، هذه ثمرة طيبة لهذا الغرس المبارك الذي غرسه الوالد بيده فأثمر وأورق، ولا عجب حينئذ عندما يقول عبدالله بن المبارك: «خير الناس الفضيل بن عياض، وخير منه ابنه عليّ»[٢]، فصلاح الفرع من طيب الأصل.

(١) سير أعلام النبلاء (٤٢٨/ ٨).
(٢) المرجع السابق.

رسالة للمربّي:

أنت صاحب البصمة الأولى في حياة ولدك.

أنت أول من تُسطِّر بأناملك الكريمة ملامح شخصية ولدك.

أنت أول من توقِّع في دفتر وجود ولدك، فولدك نسخة عن سلوكك.

أنت أول من يبذر في أرضه بذور الفضيلة.

فإياك أن تأمره بالصدق وأنت كذَّاب على وزن فعَّال، أو توصيه بالأمانة وأنت خائن على وزن فاعل، وإياك أن تضع في الميزان ما تخجل منه أمام الديَّان.

فمن المسلَّمات أن الطفل الصغير هو المستقبل بنفسه والتاريخ بعينه، فعلى ولي أمره أن يتقي الله فيه، وأن يجعل حوله سياجاً من التربية والتهذيب؛ «فإن أكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً»[1].

حجر الأساس:

هذه حقائق ثلاث في هذا السياق، هي:

أولاً: عمارة الكون تكون بالإنسان الذي به يتحقق منهج الاستخلاف في الأرض.

ثانياً: عمارة الإنسان تكون من خلال الأسرة فهي البيئة الأولى وركن الزاوية وحجر الأساس.

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (٢٩٩).

ثالثاً: دور الأسرة سلباً وإيجاباً في توجيه الناشئة والحفاظ على نقاء الفطرة ليل نهار أو الانحراف بها إلى شفا جُرفٍ هار.

قال النبي ﷺ: «**كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والأمِيرُ راعٍ، والرَّجُلُ راعٍ علَى أهْلِ بَيْتِهِ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ علَى بَيْتِ زَوْجِها ووَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ**»(١).

وغريب أمر الوالدين اللذين أهملا وقصَّرا في تربية الأولاد، فوكّلا أمرهم إلى من لا يجيدون صنعاً ولا يقوّمون معوجاً، إهمال.. نعم ولو كان وقتياً، لقد جعل أغلب الناس علاقتهم بالأولاد علاقة طعام وشراب وكساء، أما الرواء العاطفي واليد الحانية والتوجيه والتعليم فيشتكي اليتم في دنيا الناس، وفي تاريخنا الإسلامي نماذج مضيئة نستلهم من مواقفها التربوية دروساً وعبراً للآباء والأمهات لتكون لهم تبصرة وذكرى.

(١) صحيح البخاري (٥٢٠٠).

المحاضن التربوية الداعمة للأسر المسلمة

في ظلال بيت النبوة، نشأ فتى الكهول وشب وترعرع في أحضان أكرم رسول ﷺ، تعلم العلم من أطهر لسان نطق به خير إنسان، وتعلم القدوة ممن أتاه الله تعالى جوامع البيان، تعلم القدوة ممارسة ومدارسة، وما أوسع الشقة بينهما! وهذه شهادة المعصوم ﷺ له، فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمني النبي ﷺ إلى صدره، وقال: «**اللهم علِّمه الحكمة وعلمه الكتاب**»[١].

حبر الأمة، فقيه العصر، رباني الأمة، ترجمان القرآن عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ، ولد قبل عام الهجرة بثلاث سنين، وصحب النبي ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، وعاش واحداً وسبعين عاماً[٢].

ولله ما أعقل أباه! لقد دفعه ناحية الريح الطيبة، واختار له محضناً تربوياً داعماً؛ يرأب الصدع، ويقوّم المعوج، وهل في الدنيا أجمل من صحبة رسول الله؟!

درة في جبين التاريخ:

هذه الدرة الثمينة هي وصية النبي ﷺ للأولين والآخرين، همس بها أولاً في هذه الأذن الواعية؛ أذن عبدالله بن عباس؛ لتكون منهج حياة تهدي

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ١١٦/ ١١٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٢).

الحيران، وتروي غلة الظمآن، وهذه الوصية من أهم ثمرات التكوين لهذه الشجرة الطيبة التي نشأت في البيئة النبوية الطاهرة.

عن ابن عباس ﷺ قال: كنت خلف رسول الله ﷺ فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»، وفي رواية: «وأن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً»[1].

في الحديث الشريف دروس دعوية وتربوية مهمة، منها:

١- المتأمل في هذا الكلام الذي يقال لهذا الغلام، وربما لا يفهمه بعض أولي الأحلام، وهو في بواكير عمره لم يتجاوز التاسعة أو العاشرة، يجعلنا نتساءل: ما الداعي أن يسمع طفل مثل هذا الكلام؟ إنها التربية وبناء شخصية الطفل على كبير المعاني وضخامة الحدث؛ فيشب وقلبه معلق بمعالي الأمور وجليلها، لا بحقيرها ووضيعها، فمن القواعد التربوية المهمة لدى أرباب الميدان «رب ولدك على كبير المعاني وصحيح المعتقد، ولا تخش من قلة فهمه لها في وقتها»؛ لذا كان اهتمام النبي ﷺ بإعداد الناشئة من أبناء الأمة في شخص عبدالله بن عباس، ويا لروعة المحضن وعظمة الاهتمام وبراعة الإشراف!

(١) سنن الترمذي (٢٥١٦).

٢- ملازمة المتربي للمربي مظنة اكتساب الحكمة والفطنة والتزود بوافر الآداب؛ «كنت خلف رسول الله ﷺ»؛ إنها مخالطة في الحل والترحال، فهو من الذين أردفهم النبي ﷺ خلفه، وإن كانوا كثيرين، ثم انظر إلى اختيار مواطن النصيحة، واختيار المقام والمقال ليكون ذلك أدعى على قدرة الاستيعاب والتحصيل، فهل تجدي النصيحة وقت النوم، مثلاً؟! إنه وقت الدعة والكسل وخمول العقل، وما أروعه من منهج لو طبقناه مع أولادنا!

٣- حسن اختيار المربي المتمثل في شخص النبي ﷺ لمن يقوم على تربيته وإعداده، «يا غلام»؛ يعني أنه صغير لكنه يتمتع بذكاء حاد وذاكرة حافظة وقريحة متقدة وصفاء ذهن، وهذه مؤهلات جعلت منه غلاماً في حكمة الشيوخ، ثم إن مرحلة الطفولة من أهم وأخصب مراحل العمر؛ فعلى الوالدين ضرورة اغتنامها بالنافع المفيد، والبحث عن أولئك الذين يؤتمنون على فلذات أكبادنا فقد يكون تأثيرهم أعمق من تأثير الوالدين دنيا وديناً، وهذا ما ظهر من ملازمة ابن عباس لسيد المرسلين، واستكمل المسيرة بعدها مع عدد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

٤- التدريب على قوة الحفظ وصيانة المسموع من الزيغ والتحريف والنسيان؛ نقصد الأمانة في التحمل والأداء، «إني أعلمك كلمات»؛ وهي مقدمة بليغة لينتبه ويستحضر الذهن ويحفظ ما يقال، فسيأخذ من خير العِبر عبيرها، ومن جِيد الحكم جِيادها.

٥- تأصيل مفهوم العقيدة الصحيحة وترسيخ مبادئها ومعانيها في نفوس الناشئة، فالتوحيد أساس الدين وقاعدته وأصله ونصله، أول الأوامر

وأعظم القضايا ورأس جميع الأمور، هو نقطة البداية وأعلى مراتب النهاية، ولا بد أن تصدر عن العقيدة أشعتها كما يصدر عن الورد شذاه، فمن حفظ الأوامر وفعلها وعرف النواهي واجتنبها حصل له جواب الطلب، «احفظ الله يحفظك»؛ وهذه تلخص العقيدة الصحيحة.

٦- ما اشتملت عليه هذه الوصية من حفظ الله تعالى لأوليائه وأصفيائه في الدنيا والآخرة، والحث على الاستعانة بالله وحسن التوجه إليه واليقين والرضا بما قضى وقدر، فمن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تُغلب، والهادي الذي لا يضل، والحارس الذي لا ينام.

نهر العطاء الرباني:

نحن أمة القرطاس والقلم والعلم والمعرفة، ونحن أمة «اقرأ» أول مداد الغيث القرآني البديع، والعلم له خزائن كخزائن المال لا تفتح إلا بقدر، بل لا تفتح إلا بتقوى الله تعالى، فهي خير سياج، وهي سلم الوصول إلى كل باب، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ [البَقَرَة:٢٨٢].

ومن كتاب الواقع، نرى أنه ربما تشبع التلميذ من أستاذه وارتوى من معين مائه وعذب فراته حتى بلغ مرتبة سنية ومكانة علية، كما حدث لحبر المحاريب صاحب الحكمة والعقل الأريب، عن الحسن قال: «كان ابن عباس من الإسلام بمنزل، وكان من القرآن بمنزل، وكان يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران فيفسرهما آية آية، وكان عمر ﷺ إذا ذكره قال: ذلك فتي الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول»[١].

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٣).

وعن مسروق قال: «كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس»[١].

وبعد، فالفضل يرجع للبيئة التي أشرفت على هذا الغصن الندي حتى استوى على سوقه فأثمر علماً وفقهاً وفصاحة وبلاغة شهد له بها الفضلاء من الصحابة ﷺ، ويبقى الواجب العملي المهم أن نحرص على توفير مثل هذه المحاضن التربوية الداعمة لجهود الأسرة، التي ربما تكون أكثر دعماً وأجدى نفعاً وأبقى أثراً.

(١) المرجع السابق.

من نفائس الحكمة.. بين الآباء والأبناء

قليلة هي الكلمات العظام التي تساوي الواحدة منها ألفاً لما تحويه من معانٍ جليلة ووصايا نبيلة، ومن هذا المهيع المتسع وقعت عيني على سبيكة ذهبية أهداها العباس لولده ﷺ؛ «عن ابن عباس قال: قال لي أبي: يا بني، إن عمر يدنيك ويقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خمساً: لا تفشين له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا يجربن عليك كذباً، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة»، قال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف[1].

أي بلاغة وأي فصاحة جاءت في هذا التوجيه البليغ والإرشاد الفصيح من الوالد الناصح الأمين لولده ومعقد أمله ومحط فؤاده: «يا بني»؛ كناية عن الرحمة والشفقة والحنان والحرص على المصلحة وشدة الحب بما يعجز عن وصفه بيان، ولله ما أجمل براعة هذا الاستهلال، والأجمل أن يكون الحوار بين الآباء والأبناء على هذا النسق البديع؛ أعني أن يكون الخطاب بين كل منهما «يا أنا»، وكأن الوالد يخاطب بعضه، وإن كان يحلو للبعض أن يلبي رغبات أولاده من ملذات الحياة، فإن والده أعطاه درساً في فن الصحبة واحترام الصاحب؛ فحذره من هذه الرذائل الممجوجة التي تعصف بكيان الصحبة، وكأنها جمر تحت الرماد وبركان ينتظر الانفجار.

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٤).

صيانة السر:

صيانة السر آية من آي الشرف والعقل، وخلة من خلال المروءة والنبل، وسمة من سمات أهل الفضل، ومن بديع كلامهم: صدور الأحرار قبور الأسرار، وكتمان الأسرار يدل على نفاسة معدن الرجال، فمن ملك سرك ملك رقبتك، وليس بمستغرب أن يكون حجر الزاوية في هذه الوصية البليغة «لا تفشين له سراً»؛ لأن الأسرار كالأمانات يجب حفظها، والوالد الفطن يعلم أن ولده في مرحلة التكوين وسيخالط الفاروق في الحل والترحال، فليكن أميناً على سره لينال ثقته، لقد كان كتمان الأسرار في حياة الشرب الأول شرعة ومنهاجاً، وحتى الأطفال كان لهم فيه النصيب الأوفر.

عن أنس ﷺ قال: أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة فأبطات على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحداً، وإفشاء الأسرار معول هدم ينخر في بنيان الأسر والمجتمعات ويقطع الأواصر والقربات[1].

الغيبة مرعى اللئام:

الغيبة آفةٌ مرذولةٌ وعلةٌ ممقوتةٌ ما انتشرت في مجتمع إلا قامت فيه الظنون السيئة وأنبتت فيه التجسس والتحسس؛ إذ هي زاد الخبيث وطعام الفاجر، ومرعى اللئيم وضيافة المنافق وفاكهة المجالس المحرمة، فكم أفسدت من ود، ومحت من حب، وقتلت من ثقة متبادلة، وقطعت من علاقة

(١) أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٤٨٢).

محكمة، ويكفي فيها قول الملك العلام: ﴿تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحُجُرَات:١٢]، قال العلاَّمة ابن كثير في تفسيرها: «أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها»(١).

الكذب البهرج الخداع:

يقرر العقلاء أن الكذب جماع كل شر، وهو مفتاح النفاق وأساسه، يترفع عنه أصحاب الفطر السليمة، ويستوطن النفوس العقيمة والأرواح العليلة، قامت له في الدنيا سوق رائجة، ارتفعت راياته وعلا صوته وكثر أتباعه وسار في الناس سريان الماء في الجداول؛ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البَقَرَة:٨ - ١٠]، ويقول المعصوم ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان**»(٢)، ولعظم جرمه قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: «يا بُنَيَّ احْذَرْ الكَذِبَ فَإِنَّهُ شَهِيٌّ كَلَحْمِ العُصْفُورِ مَن أكَلَ مِنهُ شَيْئًا لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ. وقالَ الأصْمَعِيُّ: قِيلَ لِكَذّابٍ ما يَحْمِلُكَ عَلى الكَذِبِ؟ فَقالَ أما إنّكَ لَوْ تَغَرْغَرْتَ ماءَهُ ما نَسِيتَ حَلاوَتَهُ»(٣)، ولخص الإمام ابن القيم ما نحن فيه بقوله: «الإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٢)، ومسلم (٥٩).
(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٤١).

فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر»[١]، ولذا قال العباس لولده: «لا يجربن عليك كذباً ولو مرة واحدة حتى لا تزلّ قدمك في مهاوي الردى فتصبح كذاباً».

بين الأمانة والخيانة:

الخيانة سوس ينخر في كيان الأمة يستأصل شأفتها، وينتهك حرمتها، ويستل الأخضر واليابس من عزتها وقوتها، وما من صدع في جدار الأمة إلا وخلفه خائن غادر، وهي صفة من صفات اليهود، وسمة من سماتهم، ولا يمكن أن تجتمع الأمانة مع الخيانة، فمن ضيع الأمانة ورضي بالخيانة فقد تبرأ من الديانة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال:٢٧]، وقد استعاذ النبي ﷺ من الخيانة فكان من دعائه: «**وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**»[٢]، ويقول الإمام الذهبي رحمه الله: «الخيانة قبيحة في كل شيء، وبعضها شر من بعض، وليس من خانك في فلس كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم»[٣]، ولأن الخيانة هي بوابة كل المعاصي والرذائل، فقد جعل العباس لولده حاجزاً منيعاً ودفعه ناحية الريح الطيبة ليحيا بين الكرام أميناً مأموناً.

قصارى القول وحماداه: إن الشيوخ هم أشجار المعرفة والوقار، وثمار الحكمة وينابيع العطاء، وموطن التجربة والخبرة، والتجاعيد في وجوههم هي توقيع الزمن وبصمته على مرور الأيام والليالي في حياة الأبرار منهم،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٨).
(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤٧)، والنسائي (٥٤٦٨)، وابن ماجه (٣٣٥٤).
(٣) الكبائر للذهبي (١/ ١٤٩).

ومن خالطهم وجالسهم لا بد وأن يقوم بفائدة، وأن يحظى بخير عميم وفكر ثاقب ورأي رشيد، ولضمان هذه الصحبة وصيانتها بسياج كريم همس العباس في أذن ولده بهذه الوصية الغالية التي تعد من عيون الحكمة؛ حتى يظل نهر الحب والوفاء هادراً بين فتى الكهول وفاروق الأمة ﷺ.

ما أحوج الآباء إلى مثل هذه المصارحات والوصايا التي تسهم بشكل كبير في رعاية الناشئة حتى يستوي الزرع على سوقه، ويشب النتاج صالحاً في مجتمع المسلمين المنشود عن طريق تنمية وتبادل الأفكار بين الشباب والشيوخ، وتبقى الحقيقة المهمة: أن الشيوخ هم عقل الأمة.






التربية بالقدوة.. بين المدارسة والممارسة

من القواعد التربوية الهادفة «التربية بالقدوة»، وهي قمتها وأعلاها ولُحمتها وسداها؛ لأن الأفعال أعلى رأساً من الكلمات، وأثبت قدماً من الشعارات، وتربيتك لولدك تكون بقدوتك له.

لقد كسب عبدالله بن عباس ﷺ الأمجاد من أقطارها وديارها حين صحب النبي ﷺ، وتعلم القدوة في رحابه صغيراً، وشبَّ عليها كبيراً، والمعالى لا تعترف بالأعمار ولا يعجز عن ارتقائها الصغار، لقد كان رسول الله ﷺ قدوة صالحة جعلها الله متجددة على مر الأجيال، وميزاناً أعلى للأقوال والأفعال؛ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

ومن يطالع الواقع البئيس في أغلب المجتمعات اليوم، إلا من رحم الله، يجدها تعاني انفصاماً نكداً في شخصية الطفل بين التوجيه النظري والفعل العملي.. أما حبر الأمة ابن عباس فتربى على السلوك القويم والشخصية المتزنة والنفسية الملتزمة، وعايش القدوة ممارسة لا مدارسة؛ وبينهما أمد بعيد وبون كبير.

ليلة هنية بصحبة خير البرية:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بِتُّ لَيْلَةً عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّيْلِ، فَأَتَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ فَأَتَى الْقِرْبَةَ، فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءاً بَيْنَ الْوُضُوءَيْنِ، وَلَمْ يُكْثِرْ، وَقَدْ أَبْلَغَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى، فَقُمْتُ فَتَمَطَّيْتُ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَرَى أَنِّي كُنْتُ أَنْتَبِهُ لَهُ، فَتَوَضَّأْتُ، فَقَامَ فَصَلَّى، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَدَارَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَتَتَامَّتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّيْلِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ، فَأَتَاهُ بِلَالٌ فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ فَصَلَّى، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، وَكَانَ فِي دُعَائِهِ: «**اللهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَعَنْ يَمِينِي نُوراً، وَعَنْ يَسَارِي نُوراً، وَفَوْقِي نُوراً، وَتَحْتِي نُوراً، وَأَمَامِي نُوراً، وَخَلْفِي نُوراً، وَعَظِّمْ لِي نُوراً**» (صحيح مسلم، ١/ ٥٢٩).

في هذا الحديث الشريف عدة دروس دعوية وتربوية مهمة يتعلم منها الآباء والأمهات، منها:

١- أن هذه ليلة كريمة في حياة صبي مسلم عاش رسالة الإسلام بعقله وقلبه؛ فضحَّى من أجلها بالغالي والنفيس، وتعامل مع الحياة بميزان حساس، وحاسب نفسه بالأنفاس، وجعل لكل وقت عبادة، وعاش لحظات عمره في طاعة.

ففي الوقت الذي يلهو فيه الرفاق، ويضيعون الأعمار والأوقات فيما مضى وما هو آت، ممن لا يخلو منهم عصر ولا مصر، إلا من رحم الله،

يجعل ابن عباس سلواه في صحبة رسول الله ﷺ في سجوة الليل، وإن كان قد تعلم الفرائض في النهار فلم يفته أن يعرف هدي رسول الله ﷺ في صلاة الليل؛ ليكون سفيراً يعلِّم الأمة هدي المعصوم وهو يناجي الحي القيوم، وكان من الممكن أن يسلّم جنبيه إلى النوم، ويخلد إلى الراحة، لكنه ضحى بالنوم الهنيء ليعلِّم الأمة هدي النبي ﷺ

٢- حسن التربية والتوجيه وسعة صدر المربي عند الخطأ، وهذا منهج عظيم في معاملة المخطئين؛ «فقمت عن يساره فأدارني عن يمينه»، فالإسلام يعالج باللين لا بالشدة، بالمرهم لا بالمشرط، بالقدوة في الحركات والسكنات لا الرجم بالعبارات والكلمات.

وهذه لفتة كريمة من رسول الله ﷺ لربانيّ الأمة يتعلم منها من يتصدرون زمام الدعوة وبضاعتهم قليلة وهمتهم كليلة وبصرهم عليل، يستكثرون من الكلام رد السلام ومن التوجيه امتشاق الحُسام!

فما أحوجنا إلى أن نعلِّم أولادنا، ونصبر عليهم، ونرأب الصدع، ونقيل العثرة، ونصوب الخطأ! وكثير من أولادنا يجهل كيفية الوضوء والصلاة وشعائر الإسلام؛ فهل من توجيه رشيد؟!

ثم علينا أن نتعلم من منهج النبي ﷺ وأسلوبه في معالجة الأخطاء؛ فتارة كان يرشد المخطئ بالتوجيه المباشر، وتارة بالتعريض، وأخرى بالتأنيب، وغيرها من الأساليب التربوية التي تزخر بها السُّنة المطهرة، وينادي بتطبيقها أرباب الصناعة من علماء التربية والتعليم في مختلف أماكن الدراسة وقاعات البحث.

٣- استحباب قيام الليل؛ فهو ديدن الصالحين ودأب المقربين، وبيان أفضلية الدعاء وقت السحر، فهو مظنة القبول والاستجابة، قال جل ثناؤه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجْدَة:١٦-١٧]، فكم خرَّجت مدرسة قيام الليل من رجال عظماء فتح الله على أيديهم الفتوح وعظمت المقدسات!

ثم انظر ماذا ترى؟ لو جعل الإنسان لنفسه في كل أسبوع مرة يصلي فيها قيام الليل مع أولاده، ويحثهم على الدعاء بالنصر والتمكين لهذا الدين، وأن يسلط الله تعالى سيف انتقامه على الظالمين اقتداء بالنبي الأمين، وتعويدهم على الأذكار النافعة والدعوات الضارعة، وثمارها اليانعة؛ ففيها استقامة الحال وراحة البال والفوز يوم المآل.

ولننظر إلى كَمّ الرحمات والبركات التي تنساب في رحاب هذا البيت الطهور!

٤- دور الوالد الفطن اللبيب (العباس رضي الله عنه) الذي دفع ولده إلى البيئة النبوية العطرة ليرتشف من روح الحكمة وريحانتها من فم المعصوم ﷺ ما يصلح الله به المعاش والمعاد.

ثم أين منه هؤلاء الذين أهملوا في تربية الأولاد حتى إننا نرى بعضهم يضن على أولاده بالوقت فيعطيهم الفتات ربما قبل أن يخلد إلى الراحة والنوم، ويفني عمره في الأشغال والارتباطات فيضيع الأولاد في لجة الحياة

ويبتلعهم اليم، يخرجون بلا استئذان ويلهون بالليل مع رفاق السوء؟!

أحريّ بنا أن نلتمس لأولادنا المعلم القدوة الذي يعلّمهم من سمته قبل نطقه، ومن أفعاله قبل بيانه، حتى يكونوا نماذج صالحة تسرّ الناظرين وتنير دروب السائرين!



الهمم.. بين العزائم والهزائم

الهمة عمل القلب، وعنوان السبق، وبوابة المجد، والعاقل يدرك أنه قلب نابض لهذه الأمة؛ فلا يستصغر نفسه، ولا يُهن همته، وليكن كالطير الطماح يطير في جوف السماء ويخرقه بجناحيه فيحلق به لأعلى الآفاق، ومن مآثر أقوالهم: رجل ذو همة يُحيي الله به أمة، ورجل ذو همة يزن أمة وتتزن به الأمة، ويقول ابن القيم: «كمال الإنسان بهمة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه، فمراتب السعادة والفلاح تتحقق للعبد من هاتين الجهتين»[١]، وله درة نفيسة في «بدائع الفوائد» يقول فيها: «العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة»[٢].

هناك بعض الأسر تحرص على تفوق أبنائها دراسياً، ولكنها تخفق في إحياء همتهم وتقوية إرادتهم دينياً وتربوياً، فكم من همة علت ثم سفلت، وعزيمة أبرمت ثم نقضت! والنفس بين قوة العزيمة ومرارة الهزيمة تحتاج إلى قبس من تاريخنا المجيد وماضينا التليد.

صحيفة النسب الطيب:

التاريخ وعاء الزمن ومستودع الأحداث والعبر، لأنه كتب ومضى به القلم وصارت به الرواحل، وتاريخنا الإسلامي حافل بالنماذج المضيئة التي تربت في أحضان الفضيلة؛ فآتت أُكُلها ضعفين، من هذه النماذج الطيبة عروة

(١) بدائع الفوائد، ص٢١١.
(٢) المرجع السابق، ص٧٧٤.

بن الزبير، وأخوه عبدالله ﷺ، فماذا عن صحيفة النسب الطيب؟

أولاً: أبوه الزبير بن العوام، حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبدالمطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سلَّ سيفه في سبيل الله أبو عبدالله، أسلم وهو حدث له ست عشرة سنه، روى أحاديث يسيرة، حدث عنه بنوه عبدالله، ومصعب، وعروة، وآخرون[١].

ثانياً: أمه أسماء بنت أبي بكر القرشية خاتمة المهاجرين والمهاجرات، وآخر المهاجرات وفاة، روت عدة أحاديث، وعمرت دهراً، وتُعرف بـ«ذات النطاقين»، وكانت أسنّ من عائشة ببضع عشرة سنة، هاجرت حاملاً بعبدالله، وقيل: لم تسقط لها سن، ومسندها به ثمانية وخمسون حديثاً[٢].

ثالثاً: جَدُّه صِدِّيق الأمة، صاحب الغار، سيد من سادات الليل الساجي.

رابعاً: خالته أم المؤمنين عائشة ﷺ، عنوان العفة والنقاء، ورمز الفضيلة والوفاء، لازمها عروة وتفقه منها، في رحاب هذا الجو الطهور وهذه البيئة الصالحة نشأ عروة وإخوانه أولاد الزبير بن العوام، ولله ما أروع هذه البيئة! وما أجمل هذا الاختيار! وهذه الأسرة على أساس الإسلام أقامت البناء، وبشجرة الدين والأخلاق ارتوى الأبناء، وإذا كانت الشجرة طيبة، فإن جذورها ثابتة، وأغصانها في السماء، ثم إذا كان هذا هو المحيط الخارجي والداخلي طهراً وعفافاً ونبلاً وسخاء؛ فما الثمر المرتقب؟ إنه رموز من علو الهمة والنقاء وعناوين للتضحية والفداء.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٤١).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٩٢).

همة ترمي إلى جنة الخلد:

من بين ما تعيه الذاكرة من كتاب الحياة وما أصدقه، أنه لا بد للإنسان أن يتقلب بين عدة أحوال؛ الشباب والشيخوخة والصحة والمرض والحزن والفرح والحياة والموت، هذا لسان الواقع المشاهد غالباً، لكن للصالحين فلسفة خاصة في استقبال النوازل؛ فهم يزرعون في الحياة بإيمان وثيق، وإخلاص عميق، وتبقى حصيلة الثمر رهينة في يد القدر، وأصحاب الهمة العالية يجعلون من النقمة نعمة، ومن المحنة منحة، وعندما تدلهم الخطوب، وتتوالى الكروب؛ فإنهم يستقبلون النوازل بصبر يضاهي الجبال الشم؛ لأنهم يعلمون أن الصبر ضياء، ويجعلون منه عنواناً للسعادة ومفتاحاً لجنة الخلد.

عن الزهري قال: وقعت الأكلة في رجل عروة فصعدت في ساقه، فقال الأطباء: ليس له دواء إلا القطع، فقالوا: نسقيك شراباً يزول فيه عقلك؟ فقال: ما كنت أظن أن خلقاً يشرب ما يزيل عقله حتى لا يعرف ربه، فوضع المنشار على ركبته اليسرى فما سمعنا له حساً، فلما قطعت رجله جعل يقول: لأن أخذت لقد أبقيت، ولأن ابتليت لقد عافيت، وما ترك جزءه بالقرآن تلك الليلة، وفي نفس اليوم أصيب في ابنه محمد الذي سقط من أعلى سطح في إصطبل الوليد فضربته الدواب بقوائمها فقتلته، فقال في مصابه في ولده: اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء.

وعن عبدالله بن عروة قال: نظر أبي إلى رجله في الطست فقال: الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط[1].

(١) المرجع السابق (٤/ ٤٣٠).

وفي هذا الموقف العظيم عدة دروس دعوية وتربوية ينبغي توظيفها في الواقع ليتعلم منها الآباء والمربون:

١- الصبر على البلية، وهو من أعظم عطايا رب البرية، ذلك أن عنوان السعادة في ثلاثة أمور: الشكر على العطية، والصبر على البلية، والاستغفار من الخطية، وهذه الثلاثة جمعت الدين كله، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البَقَرَة:١٥٥]، لقد اعتبر المرض ضيف الله نزل به فهشّ له وبشّ وفرح واستبشر، وحقاً فكم في أرحام البلايا من منح وعطايا!

٢- الحفاظ على العقل؛ لأنه أساس البناء الإنساني، وبه يتفاضل الناس، وهنا لفتة كريمة لمن يدمرون خلايا هذا العقل بتعاطي الخمور والمخدرات، لقد رفض عروة أن يشرب ما يُذهب عقله، وإن كان هذا جائزاً للتداوي، ولو فعل لكان له مندوحة، لكنه ما فعل!

٣- توظيف الأعضاء كاملة في طاعة الله تعالى؛ لأنها أمانة سترد إلى خالقها، فعلينا أن نتقي الله فيها، وأن نؤدي إلى الله زكاة الصحة والعافية، فالصحة هي الملك الخفي، والعافية مال مختزن.

٤- من أين استمد عروة هذا الصبر حتى أصبح بحق جبلاً من جبال الصبر؟ استمده من محيط الأسرة الكريمة؛ فهذه أمه ﵂ صبرت على مقتل أخيه عبدالله بن الزبير بن العوام، الذي قتله الحجاج بن يوسف الثقفي ظلماً وهو لائذ ببيت الله الحرام، وقد كفَّنته وصلَّت عليه، ومن جاور أصحاب

الهمة العالية حلق في سماء الجوزاء وعانق الثريا، ثم إنه رأى الثواب بعين اليقين في الدنيا، فحلاوة الثواب أنسته مرارة المصاب.

٥- حوار مع الأعضاء قبل المخاصمة يوم فصل القضاء، فعروة يعلم أنها أمانة فحفظها وخاطبها يوم ودعها قائلاً: «الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط»، وهذا خير قبل أن يُصدم الإنسان بمخاصمتها ونطقها يوم القيامة؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فُصِّلَت:٢٠-٢١].

الصبر بين الإقدام والإحجام

منزلة الابن عند أمه منزلة لا يتصورها إنسان، ولا يعبر عنها أفصح بيان، فهو منها اللسان والفم والجَنان والدم، هو الإحساس قبل الأنفاس، هو الألم والأمل، رآه الفؤاد بالشوق والهيام قبل أن تنظره العينان وتنعم بدفئه الأحضان، هو اليوم الحاضر بإشراقه، والمستقبل القادم بأفراحه وأتراحه، هو قرة العين ومنى النفس، ربته السيدة أسماء ﵂ فصنعت منه أمة في صورة شخص على خلاف كثير من الأمهات اليوم تربي أشخاصاً فقط كالهلام لا قيمة ولا وزن! ربت إحداهن الشكل وتناست العقل، أغدقت عليه عظيم الإغداق ليملأ بمنظره الأحداق وغفلت عن الفضائل والأخلاق.

وهذا نداء وضعته السيدة أسماء ﵂ في فم الزمان ليملأ الكون صداه في مصابها بولدها عبدالله بن الزبير ﵁، الذي صبر أمام طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي بعزة المؤمن ويقين الصابر المحتسب.

دخل ابن الزبير على أمه اليوم الذي قتل فيه، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم فقال: يا أمي، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، قد قُتل عليه أصحابك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك، وإن قلت: كنتُ على حق فلما وهن أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ والله لضربة بالسيف في عزٍّ أحب إليَّ من ضربة بالسوط في ذل.

فقال: إني أخاف أن يمثِّلوا بي، فقالت: يا بني، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها، فدنا منها وقبَّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي الذي قمت به داعياً إلى يومي هذا[1].

وضوح الهدف ونُبل الغاية:

وأول أمر يسترعي انتباهك عند مطالعة هذا الموقف الرائع هو وضوح الهدف ونبل الغاية والمقصد، فإذا كانت الأم هي وعاء الإنتاج ومصنع الأفراد فإنها المعوّل عليها في صنع الأجيال والرجال، وكلما أدت دورها بإتقان صدرّت لأمتها نماذج إنسانية قرآنية عظيمة تستشرف الطريق السوي، وكلما تخلت عن مهمتها انهار البناء وسقط البنيان.

وهذا ما فطنت إليه السيدة أسماء ﵂، فهي تدرك أن الله عز وجل هو الغاية، والمصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة، وأن بذل المهج في سبيل الله أسمى الأماني، وأن كل شيء فداء هذا الدين القويم هباء، وبشعاع من سناها أنارت الطريق لأولادها وجعلتهم ثماراً ترجو من المولى جناها.

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الظاهرة (٢/ ١٧٨).

عن أبي نوفل ابن أبي عقرب، أن الحجاج لما قتل ابن الزبير وصلبه ثم أنزله عن جذعه وألقاه في قبور اليهود، أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني.

فانطلق حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين، وأنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه، أما إن رسول الله ﷺ حدثنا: «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً»، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه، قال: فقام عنها ولم يراجعها[1].

دروس تربوية:

وفي هذا الموقف عدة دروس دعوية وتربوية مهمة، منها:

١- عزة المرأة المسلمة وكرامتها وعفتها وعدم المهادنة عند الظالم وعدم الخوف إلا من الله عز وجل، وهذا دليل واضح على قوة العقيدة وصدق الرجاء.

٢- الثبات على المبدأ والتضحية من أجل العقيدة بالطارف والتليد ومفارقة الوالد والوليد، وإن كان يحلو للبعض أن يجعل من التغني بالثبات كلاماً، فلقد جعلت منه السيدة أسماء رضي الله عنها بالفعال أقلاماً.

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٢)، والحديث رواه مسلم (٢٥٤٥).

٣- الصبر الذي بلغ قمة القمم ورأس العلم، وقل لي بربك: كيف يمكن لامرأة أن تأخذ ولدها بعد أن قُتل وصُلب ثم تحنطه وتكفنه وتصلي عليه، إلا إذا كان عندها إيمان وثيق وصبر جميل بموعود رب العالمين؟!

عن ابن أبي مليكة قال: دخلت على أسماء بعدما أصيب ابن الزبير فقالت: بلغني أن هذا صلب عبدالله، اللهم لا تمتني حتى أوتي به فأحنطه وأكفنه، فأتيت به بعد، فجعلت تحنطه بيدها وتكفنه بعدما ذهب بصرها وصلت عليه، وما أتت عليه جمعة إلا ماتت[1].

وما أروع هذا المثل الذي أصبح عنواناً بارزاً يدعو إلى الصبر والثبات والتضحية والفداء، وغدا واقعاً نحياه اليوم ونراه! فعلى الدرب فضليات محتسبات في أرض الله الواسعة في فلسطين وغزة الأبية وغيرها من البلدان الإسلامية فقدن الولد والوالد والعائل على أيدي اليهود المغتصبين ممن لا يعرفون رباً ولا يرحمون صغيراً ولا شيخاً ولا امرأة، هؤلاء الفضليات صبرن وصابرن واحتسبن الأجر عند قيوم السماوات والأرض، وأين منهن كثيرات من النساء يقمن المأتم والعويل ويلطمن الوجه بالويل والثبور ويعفرن وجوههن بالتراب وقد مات لهن عزيز على فراشه وبين عشيرته؟! ألا ما أبعد الشقة بينهما!

٤- الشجاعة وكلمة الحق عند سلطان جائر، وهذه من أفضل مراتب الجهاد وأعلاه، وهي تشتكي اليتم في دنيا الناس، فأربابها نفر قليل، أما الجبناء فكثير ما هم!

(١) المرجع السابق (٤/ ٤٣٣).

وانظر إلى قوتها وشجاعتها في الصدع بالحق ومواجهة الحجاج بحديث النبي ﷺ بلا مبالاة ولا خوف من سيف انتقامه، وبطش سلطانه، بقولها له: «وأما المبير فلا أخالك إلا إياه»، وهذه بلا ريب أشهى ثمرات اليقين والرضا بما يصنعه رب العالمين.






الاستثمار الأمثل!

لا يمكن للمرء أن يصل إلى منابع الحكمة والفطنة ما لم يعالج صوارف الأيام، ويغالب نوازل الأعوام، والمواقف والأحداث في حياة الكبار تمثل مخزوناً ثرياً وموروداً متدفقاً من التجارب والخبرات والحكم والعظات؛ لذا كانت التربية بالأحداث من أهم جوانب التربية وركائزها الأساسية، ومفادها أنه ربما وقعت واقعة أو حدث موقف للإنسان في حياته ويمكن استثمارها في توجيه تربوي؛ كتعديل سلوك أو تصويب خطأ أو غرس فضيلة، وهذا المسلك يرسخ في الذهن رسوخاً، ويغرس في القلب كثيراً من المعاني الإيمانية غرساً عميقاً.

إن النفس البشرية مجبولة على حب القدوة، والسعي إلى الكمال والتأسي بمن ترى أنه أكمل منها وأفضل، وكل إنسان في شأن ما يهواه يقتدي بمن يرى فيه الخير، ونحن في زمن فقدنا فيه القدوات، وضيعنا فيه الأسوات، فمن المفارقات العجيبة أن نرى سفلة الناس ومنحطي الأخلاق هم القدوة وأفعالهم هي الأسوة! فكم من فئة كبيرة في المجتمع قدوتها لاعب أو فنان أو مطرب أو رجل فاجر! فأصبحت الأمة في ضياع حتى في قدوتها!

دعونا نخاطب الذاكرة، ونتذكر الأيام الخوالي أيام مجدنا الزاهر، لنقف مع سيرة رجل كان للوفاء آية، وللصدق عنواناً، وللعدل منبراً.

ومن هذه الثمار اليانعة، نما وترعرع الإمام الحافظ العلَّامة المجتهد الزاهد العابد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص عمر بن عبدالعزيز بن مروان القرشي الأموي أشج بني أمية، أما أمه فهي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

ولد عام ٦٣ هـ، وكان ثقة مأموناً له فقه وعلم وورع[١]، وأكرم به من وعاء أسري ومحضن تربوي! احتضن هذه النبتة الكريمة وتعهدها بالتوجيه والتهذيب حتى أينعت وأثمرت أطيب الثمر، وحُق له، فهو سليل بيت الفضائل، ونتاج أشجار العدل وكريم الشمائل، ويكفي أن يكون في أعلى العلم فاروق الأمة رضي الله عنه، وصدق أرحم الراحمين: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ [الأعراف: ٥٨].

بدت عليه مخايل النجابة والذكاء مبكراً، ورزق حب العلم وحفظ القرآن الكريم ومجالسة العلماء والزهاد وهو غض الإهاب.

بين التقويم والتحطيم:

أورد الإمام الذهبي في سيرته هذا الموقف الرائع أنه «بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها، وكتب إلى أستاذه صالح بن كيسان يتعاهده، وكان يلزمه الصلوات، فأبطأ يوماً عن الصلاة فقال: ما حبسك؟! قال: كانت مُرَجّلتي تسكن شعري، فقال: بلغ من تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة، وكتب بذلك إلى والده فبعث عبدالعزيز رسولاً إليه فما كلمه حتى حلق شعره»[٢]، فماذا في هذا الموقف من دروس تربوية؟

---

(١) السير (٥/ ١٤).

(٢) المرجع السابق (٥/ ١١٦).

أولاً: المظهرية الجوفاء داء عضال وسم زعاف نشب بأظفاره في شتى البقاع، حيث تحرى الكثيرون النقوش وغفلوا عن إصلاح النفوس، فكم من أوقات ضيعت بسبب إصلاح القشر والإهاب والغفلة عن الجوهر واللباب! إن الوالد اليقظ يعلم أن ما يغرسه في ولده صغيراً سيجني ثمرته كبيراً، فامتشق الحسام قبل بدء الكلام فحلق رأسه أولاً، والذي سينبت مع كر الجديدين، وعاقبه أشد العقوبة؛ لأنه يعلم أن من أمن العقوبة أساء الأدب، والمعلوم أن أسلوب الثواب والعقاب من الأساليب التربوية الناجحة، والمقصود منهما التقويم لا التحطيم، تقويم الولد ليتقدم إلى الأمام، لا تحطيمه حتى يتأخر عن قيادة الزمام.

ثانياً: الدرس الأقوى والأبقى ودائماً الله أولاً، فإن نداء الله قبل أي نداء، فهو لا يؤخَّر ولا يؤجَّل؛ «قم إلى الصلاة متى سمعت النداء»، ولقد أصبح ذلك في حياته شرعة ومنهاجاً، حتى إنه لما حج أبوه ومر بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: «ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام»[1].

لقد كان الله أولاً في عدله بين الرعية، وفي عطفه على الأرامل واليتامى، وحتى حين وصيته لأولاده عند موته كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: علاقة المعلم بالوالد علاقة توافق واتساق، فلا بد من التكاتف والحب من أجل إنضاج هذه الثمرة المباركة، تعاهده وألزمه الصلوات، والولد يعرف حقائق الأشياء بعين أستاذه لأنه القدوة في الحسن والقبيح،

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٢).

وعد معي قليلاً إلى الوراء يوم أن كان التعليم رسالة وغاية، ثم أصبح وسيلة لأهداف قريبة وليس غاية لأهداف بعيدة.

رابعاً: غرس الفضائل ومقت الرذائل ينبوع دفاق يتفجر من المحيط الأسري أولاً، وكم في الأسر من مفارقات عجيبة! إذ كيف تأمر ولدك بالصدق وأنت كذاب؟! وكيف تأمره بالأمانة وأنت خائن؟! وكيف تأمره بمراقبة الله تعالى وأنت تنتهك محارمه؟! إن هذه كأحلام الخيال التي سرعان ما تذوب تحت شمس الواقع، أما عمر بن عبدالعزيز فقد شب مع الفضائل حتى استوى على سوقة فقال: «والله ما كذبت منذ أن علمت أن الكذب يضر أهله»[1].

وصدق فيما قال، فإن الكذب سراب يقرب البعيد ويبعد القريب، وهو الدليل الواضح والبرهان البين على خسة النفس ودناءتها وفساد دينها ودنياها.

ألا ما أحوج الأبناء والآباء إلى معايشة مثل هذه المناقب من خلال سيرة سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين.



(١) السير (٥/ ١٢١).

الوصية.. بين الإنصاف والإجحاف

الأولاد ثمار القلوب، وكلنا يرجو ازدهار زرعه، ويترقب قطاف ثمره، ويرقب أبناءه بعين الحب، ويتمنى لهم من الصلاح التمام، ويبذل في سبيل هذا الأمل الغالي والنفيس، لكن تبقى حصيلة الثمر رهينة في يد القدر، فتظل يد الله تعالى هي المرجوة، وحول الله سبحانه هو القوة وهداية الله أكمل هداية، وأنبل وأشرف غاية.

والعقلاء يدركون أن ملخص حياة الإنسان يكون عند ختام العمر وفي اللحظات الأخيرة منه على فراش الموت؛ لذا شُرعت الوصية، وعمل بها الأنبياء والمرسلون، واقتدى بهم الأتباع والصالحون؛ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البَقَرَة:١٣٢]، والوصية بهذا الدين أعظم الوصايا وأعلاها وأغلاها، وهي وصية الله للأولين والآخرين.

التربية بالتقوى:

الوصية الوالدية من أهم وسائل التربية المؤثرة وركائزها العظيمة الباقية؛ لأنها توجيهات تلامس الواقع، ومنارات تنير ردهات المستقبل.

لذا أشرف عمر بن عبدالعزيز على زرعه بنفسه فأدَّب أولاده فأحسن

الأدب، وروّضهم فأحسن الرياضة، وجعل منهم قوالب قرآنية تتطلع للصلاح والإصلاح، ثم لما حانت لحظة الوداع وضع لهم آليات تضمن لهم الثبات حتى الممات؛ فكانت وصيته بهم إلى من أنزل الكتاب وأجرى السحاب وهزم الأحزاب.

وبين البدء والختام نرى خيوط التربية موصولة، فقد ذكر كتاب «السير» أنه لما حضرت عمر بن عبدالعزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبدالملك فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته، قال: أجلسوني فأجلسوه، فقال: لقد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: أني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت الوصية فإن وصيتي فيهم: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله، ادع لي بَنِيّ، فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه وقال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم، وبكى، يا بَنيّ، إني قد تركت لكم خيراً كثيراً لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً، يا بني، إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إليَّ، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[1].

(١) سيرة عمر، ص ١١٦-١١٥.

وقال ابن الجوزي: أبلغني أن المنصور قال لعبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عظني قال: مات عمر بن عبدالعزيز وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران، وقسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً، ومات هشام بن عبدالملك وخلف أحد عشر ابناً، فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبدالعزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه[1].

وهنا مجموعة من الدروس نحتاج إلى تأصيلها في الواقع، لقد وضع عمر بن عبدالعزيز برنامجاً تربوياً ناجحاً لأولاده في مستقبل الأيام تربى هو عليه قبل ذلك ثم سقاه لأولاده ماءً سلسبيلاً.

ما أجملها من وصية حين قال عمر: إن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين! ففيها استشعار لمعية الله تعالى واستحضار لعظمته سبحانه، فدائماً الله أولاً، وما دام الأمر كذلك فلا خوف على مال ولا ولد؛ لأنهم عند الأمان الذي لا ضياع معه، والركن الشديد الذي لا نجاة إلا في رحابه.

فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم، كلمة رائقة بتوقيع الخليفة العمري الزاهد يتمثل فيها الورع الشديد في أحرج اللحظات، وتفويض الأمر لله تعالى، والحرص الشديد على المحافظة على المال العام؛ لأنه يعلم أن من دخل دار الهوى تاجر بالعمر، وهو أنفس ما يملك الإنسان، فأراد أن يودعها كفافاً لا له

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٨.

ولا عليه، وليكن دائماً الله أولاً.

وغريب أمر هؤلاء الذين يصرون على سرقة المال الحرام ليستمر وزرهم بعد الممات!

ما أحوجنا إلى تأصيل هذه المعاني الإيمانية الجليلة في نفوس أولادنا لتزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم؛ كالورع والخشية والخوف والرجاء ومراقبة الله في السر والعلن.

معادلة لا يفهمها إلا الكبار حين قال عمر: إما أن تفتقروا وأدخل الجنة، وإما أن تستغنوا وأدخل النار، فاكتفى بالحلال الطيب ولو كان قليلاً؛ لينجو من لفحات النيران إلى نفحات الجنان، فإن كان الحرام أعلى رأساً فإن الحلال أثبت قدماً، ودرهم من حلال تستجلب به البركات خير من ألف درهم من حرام تستمطر به اللعنات.

يقول الإمام ابن القيم: الدراهم أربعة؛ درهم اكتسب بطاعة الله وأخرج في حق الله فذاك خير الدراهم، ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج في معصية الله فذاك شر الدراهم، ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأخرج في أذى مسلم فهو كذلك، ودرهم اكتسب بمباح وأنفق في شهوة مباحة فذاك لا له ولا عليه، هذه أصول الدراهم[1].

الذكر الطيب والثناء الحسن خير كنز يضاف إلى رصيد الإنسان في حياته وبعد مماته، وأنفس ميراث عند أصحاب الأفكار النيرة، والعقول المبصرة تهون معه الدنيا بزخرفها وزخارفها، فما ترك عمر لأولاده كثير مال وإنما

(١) الفوائد، ص ٢٤٦.

ترك لأولاده سيرة حسنة ينتفع بها العيال، فلم يكن همه أن يكون في صوف الموسرين، بل اختار أن يرفع شعار ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤].

صلاح الآباء يمتد إلى الأبناء، وهذه ثمرة جناها عمر بن عبدالعزيز في أولاده، وصدق أرحم الراحمين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطُّور: ٢١].

الأم والتربية بعصامية اليُتْم

من أمتع وأعذب ما قال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

الأم مدرســـــة إذا أعددتهـــــا أعددت شـــــعباً طيب الأعراق

الأم روض إن تعهـــــده الحيا بالـــــري أورق أيمـــــا إيراق

الأم أستاذ الأســـــاتذة الألى شـــــغلت مآثرهم مدى الآفاق

وهذا الكلام ينطبق على أم الإمام البخاري انطباق المفتاح على قفله والكتاب على ختمه، فقد نشأ البخاري يتيماً، مات أبوه وهو صغير؛ فتعهدته أمه بالرعاية والتعليم وحب الطاعات والهدي القويم؛ فشب عف اللسان كريم الخلق، وجعلت من عصامية اليتم دافعاً جعله في مقدمة مصاف الكبار.

فمن هو الذي دوَّت شهرته في الأفاق، وسرى ذكره كما يسري النسيم ليداعب الثمار والأشجار، وكتب الله عز وجل القبول لصحيحه حتى أصبح عنواناً لكتب الصحاح، وخلد الله تعالى ذكره كلما لهجت الألسن بحديث رسول الله ﷺ صباح مساء؟!

إنه الإمام الرباني أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ)، واحد من الربانيين الذين صنعهم الله لخدمة هذه الأمة، من أهم شمائله كرائم الخصال، وكانت متجسدة فيه، تدعو الناس للاقتداء بها، تتبع خطى النبوة

وتخلَّق بأخلاقها، حتى كان رأساً يشار عليه، وعالماً يرحل إليه.

روافد التكوين:

أولاً: فضل الله تعالى عليه، فهو من الرجال القلائل الذين اصطفاهم الله تعالى لخدمة دينه وحفظ تراث هذه الأمة، فقيَّضه لتتبع سُنة النبي ﷺ، فنفى عنها تحريف المبطلين، وتأويل الغالين.

ثانياً: صلاح الأبوين؛ أما أبوه إسماعيل فقد كان حريصاً على العلم، رحل إلى مدينة رسول الله ﷺ لسماع إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وإلى البصرة لسماع حماد بن زيد، والتقى بعبدالله بن المبارك وصافحه بكلتا يديه.

وكان له مال كثير، قال عند موته: «لا أعلم من مالي درهماً من حرام ولا درهماً من شبهه»، وبيت هذا قوامه صلاح الأب والمال الحلال فكيف لا يبارك الله في نتاجه؟!

أما أمه فكانت عابدة صاحبة كرامات، رزقت حظاً وافراً من الصلاح والتقوى، مستجابة الدعوة، ذكر العلامة ابن حجر في المقدمة: «إن محمداً بن إسماعيل ذهبت عيناه في صغره فرأت أمه الخليل إبراهيم في المنام فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك، قال: فأصبح وقد رد الله عليه بصره»[1]، إذن فالبيئة والنشأة الصالحتان كانتا من أهم روافد التكوين النفسي والفكري للإمام البخاري، رحمه الله تعالى.

ثالثاً: اليُتم محضن الرجال، ومهد العظماء غالباً، إذ إن رموز العلماء كانوا يتامى، ولنا جميعاً في الهادي البشير ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة العظيمة،

(١) هدى الساري مقدمة صحيح البخاري (٥٦٠)، السير (١٢/ ٣٩٣).

وقد ضربت أم الإمام البخاري مثلاً عظيماً ودرساً كريماً للأمهات، فقد مات أبوه وهو صغير؛ فدفعته أمه إلى العلم وحفظ القرآن الكريم وطلب الحديث الشريف، ثم حجت به ومعه أخوه أحمد، لكنها تركته وحده ليواصل السير والرحلة في الطلب، ولتكن البداية من خير البقاع البلد الحرام، وكان بعد لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره[١].

ولله ما أروعها من أم عاقلة تدفع ولدها ناحية الريح الطيبة! لقد كانت صاحبة الفكرة أن يحج ثم يأخذ العلم من منبعه ورافده الأولى، وهي تعده إعداداً دقيقاً من الحرمين الشريفين، تبدأ الرحلة في طلب العلم والتنقل بين الحواضر الإسلامية، ليعود بعدها لا ليعلم قومه، بل ليعلم الدنيا بأسرها.

إذن، أيها اليتامى، أبواب الكمال أمامكم مفتوحة، فمن فقَدَ أباه أطمح إلى عطاءات الله، وهذا من فضل الله على العلماء في مرحلة التكوين؛ أنه إذا أخذ منهم أعطاهم.

إن المرأة التي تصبر على فقْد أنيسها وتربي أولادها لها يوم القيامة عظيم الجزاء من رب الأرض والسماء؛ قال النبي ﷺ: «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة (وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطى) امرأة ذات منصب وجمال آمت من زوجها حبست نفسها على أيتامها حتى بانوا أو ماتوا»[٢].

الذكاء والإباء:

أي إلهام وأي فصاحة وأي ذكاء وهبه الله تعالى للإمام البخاري! لقد

(١) المقدمة (٥٦٠).

(٢) مسند الإمام أحمد (٦/ ٢٩) رقم (٢٣٤٨٦).

شب طفلاً وقد بدت على قسمات وجهه مخايل النجابة والذكاء حتى صار بحق من أذكياء الدنيا، قال عن نفسه: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب، فسأله وراقه: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل[١].

قال حاشد بن إسماعيل: كان البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام، فلمناه بعد ستة عشر يوماً فقال: قد أكثرتم عليَّ فأعرضوا على ما كتبتم فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه[٢].

سأله وراقه يوماً في خلوة: هل من دواء يشربه الرجل فينتفع به للحفظ؟ فقال البخاري: لا أعلم، ثم أقبل عليه وقال: لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر[٣].

إنه النبوغ العلمي والهمة العالية في البحث والصبر والمصابرة على تعلم العلم فضلاً عن الموهبة الجادة في الذكاء والحفظ التي قلما يجود الزمان بمثلها على بشر، إن أمير المؤمنين في الحديث كان ذا نفس تواقة تتطلع بشوق وحب إلى جمع أحاديث النبي ﷺ؛ فاستعذب العذاب، واستسهل الصعاب، وتحمل الأوصاب، فتحرى الدقة في النقل، فدقّق وحقّق وهجر طيب الرقاد من أجل البحث والتأصيل، حتى أصبح في دنيا الناس درة نادرة الوجود.

وأين منه هؤلاء الذين جعلوا النوم خِلّاً، وتضييع الأوقات صاحباً،

(١) المقدمة (٥٦٠)، السير (١٢/ ٣٩٣).
(٢) المرجع السابق (٥٦٠).
(٣) المرجع السابق (٥٦٠).

والكسل رفيقاً ومؤنساً، ومن أراد الترقي إلى سلم المجد فليشمّر عن ساعد الجد، وإلا فهي أحلام أو أضغاث أحلام.

وبعدُ، فالواجب علينا أن نحث أولادنا على طلب المعالي ونزرع فيهم الهمة العالية والعزيمة الصادقة، فنحن بحاجة إلى أن نتقدم بإسلامنا، وأن نتعلم من سيرة سلفنا الصالح؛ علَّنا نحيا من غفلة أو ننجو من عثار!



بين وهج البدايات وإشراق النهايات

ذكر المؤرخون أن الباعث للإمام البخاري على تصنيف الجامع الصحيح أنه كان يوماً في مجلس إسحاق بن راهويه فقال إسحاق: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سُنة النبي ﷺ، فوقع هذا القول في قلب البخاري؛ فأخذ في جمع الكتاب.

وروي عن البخاري أنه قال: رأيت النبي ﷺ كأني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذبّ عنه، فسألت بعض المعبرين، فقال: إنك تذب عنه الكذب؛ فهو الذي حملني على إخراج الصحيح[1].

العقلاء يعرفون أن الفرصة سريعة الزوال تمر مر السحاب سريعة الفوت بطيئة العود، والفرصة التي تطير لا تترك وراءها إلا غبار الحسرات ولهيب الزفرات؛ لذا بادر الإمام البخاري بعد أن سمع الكلمة من شيخه التي صادفت قلباً خالياً؛ فشمّر عن ذراع وكشف عن ساق وجمع الصحيح ليكون ذخراً له يوم التلاق.

وهذا شأن العقلاء وسبيل النبهاء؛ فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذراً من فواته، ويبادر به خيفة عجزه، ويعتقد أنه من فرص زمانه وغنائم إمكانه، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت فأعقبت

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠١).

ندماً، ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلاً! ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب فكره لكانت مغارمه مدحورة، ومغانمه محبورة، وقيل: من أضاع الفرصة عن وقتها؛ فليكن على ثقة من فوتها[١].

ولقد تميز الإمام البخاري بصفات عذبة وشمائل جمة ساهمت في اقتناص الفرصة، منها: الإقبال على العلم والجد في تحصيله؛ فقد بدأ التأليف والتصنيف وعمره ١٨ عاماً، صنف الجامع ورتبه وبوّبه في المسجد الحرام، قال ﷺ: «ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين وصنفته من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله»[٢].

ومن سماته أيضاً قوة الحفظ وكثرة المطالعة والصبر والمثابرة حتى قيل: إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرداً، ويحوي الكتاب ٧٢٧٥ حديثاً اختارها البخاري من بين ستمائة ألف حديث كانت تحت يديه!

غلام في حكمة الشيوخ:

قالوا: ألسنة الخلق أقلام الحق، ومن أحبه الله تعالى لهجت ألسنة الخلائق عليه بعاطر الثناء وجميل المديح، فالحب إذن حبل ممدود بين أهل السماء وأهل الأرض، وهذه نبذة مختارة عن سيد النبهاء وأمير المحدثين:

قال محمد بن قتيبة البخاري: كنت عند أبي عاصم النبيل فرأيت عنده غلاماً فقلت له: من أين؟ قال من بخارى، قلت: ابن من؟ قال: ابن إسماعيل،

(١) فيض القدير (٤/ ٢٨٢).
(٢) مقدمة فتح الباري، ص٥١٣.

فقلت: أنت من قرابتي، فقال لي رجل بحضرة أبي عاصم: هذا الغلام يناطح الكباش؛ يعني يقاوم الشيوخ.

قال قتيبة بن سعيد: لو كان محمد بن إسماعيل في الصحابة لكان آية، جالست الفقهاء والزهاد والعباد فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل البخاري وهو في زمانه كعمر في الصحابة.

قصارى القول: إن آيات الثناء والمديح من شيوخ الإمام البخاري وأقرانه وتلاميذه التي تدل على سيلان ذهنه وقوة حفظه وذكاء قريحته وصفاء فطرته كثيرة جداً، فقد لقب بـ«شيخ الحفاظ»، و«سيد الفقهاء»، وغيرهما، حتى قال الحافظ ابن حجر: «لو فتحت باب الثناء عليه لفني القرطاس ونفدت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له»[1]، وما بين منطوق باللسان ومرقوم بالبنان من القرن الثالث الهجري وإلى آخر الزمان تترحم عليه جموع البشر ضحى وعشياً بقولهم: قال البخاري رحمه الله في كتابه «الجامع الصحيح»، إنه إشراق النهايات ورضا رب البريات.

الأم الرؤوم:

لا بد من الاعتراف بفضل البيئة التي نشأ فيها الإمام البخاري، ولا يعزب عن البال دور هذه الأم الرؤوم التي لم يشغلها فقد زوجها عن تربية صغيرها، فلقد صارت به نحو الفطرة السليمة ودفعته في اتجاه الريح الطيبة؛ فاستقر شراعها على الماء، واستجاب لدعائها رب السماء.

(١) المرجع السابق، ص٥٦٥ - ٥٦٨.

إن الإعداد الجيد للناشئة في عمر الزهور يحتاج إلى يد صانع ترأب الصدع، وتُقَوّم المعوج، وتبصر بالطريق السوي؛ لتتفتح هذه الزهور مع الأيام وتشب وتكبر وتملأ الحياة بأريجها عطراً وحباً وروحاً وريحاناً، وهل كان العظماء إلا خريجي مدرسة الأمومة الناجحة والتربة الصالحة؟!

وهذا ما أدركته أم الإمام البخاري، فلقد ربته على عينها، وتاجرت فيه مع ربها؛ فربحت تجارتها، وأينعت ثمرتها، وسعدت به الخلائق، وستبقى ذكراه ما بقيت هناك شفاه تنطق بأحاديث خير البرية ﷺ، وتلك مهمة الأسرة، ألا فما أيسر التكليف وما أصعب التسويف! والإخفاق الأسري عواقبه وخيمة وثمرته عقيمة؛ لأن الشروخ المتصدعة في الجدار الأسرى غالباً ما تكون عوامل عطب في طريق الوصول إلى شباب أمثل ودعاة أفضل.

ومن الدر المنظوم من كلام الكبار نعلم «إن اكتمال الخصائص الإنسانية الفاضلة لا يتم طفرة ولا ينشأ اتفاقاً، بل هو نتيجة سلسلة من الجهود المتلاحقة والبرامج المدروسة والإشراف الدقيق، وإن الملكات العظيمة تكمن في النفس كمون الجمال والعذوبة والحلوى في البذور والبراعم، وكما تتضافر الحرارة والمياه وضروب العناية على استخراج أطايب الثمر من هذه الأصول المطوية الضامرة، تتضافر عناصر البيئة الصالحة والتربية الراشدة على تفتيق المواهب العليا في الإنسان وإنضاج ما يولد فجاً في أيام الطفولة وعهود الحداثة الأولى حتى يبلغ مداه، ويصل إلى مستواه.

وكثيراً ما تعطب الثمار، ويقل المحصول لفساد الجو الذي أحاط

بالزروع، وكثيراً ما تفسد الأجيال وتلتهم نضارتها الآفات لقصور المربين والمعلمين عن تهيئة الجو الذي تنبت فيه الناشئة نقية الفطرة مصونة النماء»[1].

ويبقى السؤال: هل فكر الآباء والأمهات بجد واجتهاد في العمل على إيجاد جيل من العظماء الفاتحين والعلماء الربانيين كابن تيمية، والبخاري، وصلاح الدين؟!

إن هذه البراعم الجميلة تحتاج إلى مزيد من العناية والرعاية، وهذه نقاط مقترحة على بساط البحث:

أولاً: ضرورة التنشئة على طلب المعالي وزرع النبوغ والتقدم والازدهار في قلب الناشئة.

ثانياً: الاستعداد الذهني والنفسي للوصول إلى أسمى الغايات وأعلى الدرجات.

ثالثاً: اختيار المعلم الصالح الذي يستطيع تنمية هذه الزهرة ويحافظ على تربتها النقية وفطرتها السوية.

رابعاً: مدارسة حياة العظماء والاستفادة من قصصهم وأخبارهم؛ فهي من أقوى عوامل التربية الصحيحة.

خامساً: استفراغ الجهد والطاقة والعناية بالناشئة، واستعذاب الألم والتعب في سبيل الوصول إلى أنبل غاية وأشرف مأمول.



(١) جدد حياتك، ص١٨٧.




التربية الإيجابية بالرسائل القرآنية

سئل الشاعر محمد إقبال عن سر بلاغته وفصاحته فقال: يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر ونثر إلى توجيهات أبي رحمه الله، فقد تعودت قراءة القرآن بعد صلاة الصبح، وكان يراني والدي فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه بأني أقرأ القرآن، وظل على ذلك ٣ سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وفي ذات صباح قلت له بعد إجابتي: ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: اقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك، ومنذ ذلك الحين بدأت أفهم القرآن، وأُقبل عليه؛ فكان من أنواره ما اقتبست، ومن بحره ما نظمت.

وقفت مشدوهاً أمام هذا الحوار التربوي الهادف من الوالد الفقيه البصير إلى معْقد أمله ومحط فؤاده، وكيف جمع له بين القراءة والتدبر والفهم ليجعل منه صورة إيجابية للقرآن الكريم، فنحن بحاجة إلى قوالب إيمانية أكثر من حاجتنا إلى نسخ قرآنية، فكثيرون هم أولئك الذين حفظوه في صدورهم ولم ينفذ إلى قلوبهم، أما هذا الوالد اليقظ فدله على موطن التميز والنبوغ، وأرشده إلى أن يفقه رسائل الله تعالى في قرآنه وكأنها تخاطبه وتمثل بين عينيه تدفعه للهدى وترده عن الردى.

النسب الزكي:

ولد في دولة باكستان بمدينة سيالكوت الواقعة في ولاية بنجاب عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٧م، وتوفي عام ١٩٣٨م بعد أن بلغ من العمر ٦٠ عاماً، سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير، أسلم جده الأعلى بابا لولي حاج في القرن الخامس عشر الميلادي، وذهب أكثر من مرة سيراً على الأقدام إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج؛ ومن ثم لُقب بـ«الحاج».

نشأ إقبال في بيت طاهر لأبوين تقيين كريمين، فكانت أمه نموذجاً رائعاً للتقوى والورع والتمسك بتعاليم الإسلام، قال عنها يوم موتها: عندما آتي إلى تراب مرقدك سوف أصيح من ذا الذي يذكرني في الدعاء في منتصف الليل.

أما والده محمد نور الدين إقبال، فكان له علم واسع في الدين والزهد والورع، وكانت تدمع عيناه خوفاً كلما ذكرت الجنة والنار، وكلما سمع عن يوم الحساب والجزاء، باشر المحاماة والتدريس وحصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة.

هذا بيت أساسه التقوى والزهد والورع، وله من قيام الليل النصيب الوافي، وفي الخوف من الله والدار الآخرة الجواب الكافي، فما ثمرته المرجوة؟ إنه رجل عاش رسالة الإسلام بعقله وقلبه وقلمه حتى لُقِّب بـ«شاعر الإسلام في العصر الحديث».

بين المعاني والمباني:

معايشة القرآن الكريم يجب أن تكون باللسان ذكراً وبالقلب تدبراً وبالعقل تفكراً وبالجوارح عملاً، وإن كان للقراءة جلسة فيجب أن يكون

للتدبر جلسات؛ لأن التدبر سر القراءة وعنوان النجابة، وهو شعور ينبض في قلوب المؤمنين، ونور يفيض على جوارح المتقين، وهذه هي الرسالة الأولى والأهم من الرسائل القرآنية التي تشكل الشخصية السوية، ويا لروعة هذه الكلمة من الوالد المربي: اقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك، وكأنه رسالة من الله لك.

يقول الإمام ابن القيم: لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية محتاجاً إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم.

ومن نعم الله على عباده أن جعل قلوب الصالحين أوعية لكلامه، وصدورهم مصاحف لحفظ آياته، ويسر لهم حفظه وفهمه؛ (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) (القمر: ١٧)، يقول د. محمود عمارة: إن الذين يمضغون ألفاظ القرآن مقصرون في حق القرآن، وليت الذين يمسكون بالمصحف لائمين غيرهم بالتقصير ليتهم يتهمون أنفسهم بالظلم حين يتعاملون مع القرآن بلغة الأرقام، فالأهم عندهم كم يقرؤون، وليس مهماً كيف يقرؤون! وهذه الكيفية هي الأساس في تربية الناس، وأعظم من السباق في قراءة القرآن أن تتوقف أمام الآية لتستخرج من بحورها ما لذ وطاب من قيم الإيمان، ولقد نزل الحق تنزيلاً وعلى المدى الطويل ليتسرب منه إلى الأعماق رحيق يسري في دمائنا، فإذا أقوالنا وأفعالنا عليها من عزة القرآن دليل.

فقه الرسائل القرآنية:

الرسائل القرآنية محطات تنبيه للغافل، ووقود يشحذ همة العاقل، وشعاع من ضياء يهدي الحيران، وعذب فرات يروي غلة الظمآن، ومن هذه الرسائل المهمة التعرف على الله تعالى والتعريف به باعتباره رأس العلم وأسمى المعارف، والمفتاح الأوحد لمعرفة الله تعالى تدبر الأسماء الحسنى المتضمنة لمعاني العظمة والإجلال؛ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

ورسائل القرآن عن اكتشاف الحياة الآخرة؛ لأن الحياة طبقتان؛ الأولى تنتمي إلى عالم الشهادة (الدنيا)، والثانية تنتمي إلى عالم الغيب (الآخرة) الموت والبرزخ والبعث والحساب والجزاء، ورسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها الكثير نحتاج إلى معايشته مع أولادنا لنبث في نفوسهم الأمن والسلام والحب والوئام.




التربية بإحياء الضمير الغائب

قال بعض الحكماء: إذا أردت أن تحصد بعد شهور فازرع قمحاً، وإذا أردت أن تحصد بعد سنوات فازرع شجراً، وإذا أردت أن تحصد بعد جيل فازرع رجالاً[١].

هذه الحكمة اليانعة قام بها والد محمد إقبال خير قيام، فقد زرع في قلبه وروحه وهو ما زال غض الإهاب كل معاني وصفات الرجولة السوية التي تؤهله لتحمُّل المسؤولية، وعش معي بعقلك وقلبك لتسمع من محمد إقبال هذا المشهد الذي كان حجر الزاوية في بناء شخصيته وتزكية نفسه وتهذيب خلقه فقال: سائل كالقضاء المبرم طرق بابنا طرقاً متوالياً، فثرت غضباً فضربته بعصا على رأسه فتبعثر ما جمعه بسؤاله، والعقل أيام الشباب لا يفرق بين ضلال وصواب، ورآني والدي فاغتم وأربد وجهه وتأوه وسال الدمع من عينيه، واضطربت روحي الغافلة وطار لُبي!

قال أبي: تجتمع غداً أمة خير البشر أمام مولاها، ويحشر غزاة الملة البيضاء وحكماؤها والشهداء، وهم حجة الدين وأنجم هذه الأمة، والزهاد والعلماء والعصاة، ويأتي هذا السائل المسكين صائحاً في هذا الحشر شاكياً، فماذا أقول إذا قال لي النبي ﷺ: إن الله أودعك شاباً مسلماً فلم تؤدبه بأدبي،

(١) فن صناعة الرموز خطوة بخطوة، ص ٤.

بل لم تستطع أن تجعل منه إنساناً؟ فتمثل عتاب النبي ﷺ ومقامي في خجلي بين الخوف والرجاء، انظر يا بني إلى شيبي واضطرابي وقلقي، ولا تقسُ على أبيك ولا تفضحه أمام مولاه، يا بني، كن برعماً في غصن المصطفى، وكن وردة من نسيم ربيعه، وخذ من خلقه الطيب بنصيب[1].

الرقابة الذاتية:

من الواضحات الجليات لدى العقلاء أن بنيان الإنسان أهم من تشييد العمران، وأن المبدأ الأسمى والأصيل الذي ربى النبي ﷺ أصحابه عليه ينحصر في كلمات عشر: «تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، وقد استقاه المعصوم ﷺ من نبع القرآن الكريم الصافي قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غَافِر:١٩]، ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلْك: ١٣ - ١٤].

فالضمير هو جهاز استشعار داخلي دقيق، وإنذار رقيق، وكشاف ينير الطريق يدفع صاحبه إلى ساحات الهُدى ويرده عن مواطن الردى، وهو شعور إنساني باطني يجعل المرء رقيباً على سلوكه وتصرفاته وأقواله وأفعاله، فما أجمل صوت الضمير الذي نادى من مملكة قلب نبي الله يوسف حين دعته امرأة العزيز: (مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) (يوسف: ٢٣)! أليس هو نفس الصوت الذي جعل ماعز الأسلمي يأتي إلى محكمة المصطفى ﷺ ليقيم عليه حد الله؟!

هذه أصوات بينها وشائج وأواصر، ولأهمية بناء الضمير وتعزيزه

(١) فلسفة الذات في فكر محمد إقبال، ص ٣٨.
(٢) صحيح البخاري (٥٠).

في نفس محمد إقبال علَّمه الوالد المربي درساً لا يُنسى لما ضرب السائل المسكين، فلم يتخذ الضرب والعنف وسيلة لولده على سوء صنيعه وجهله وعدم تقديره، وإنما كلَّمه بعتاب الحبيب لحبيبه: يا بني، غدا تجتمع أمة خير البشر أمام مولاها؛ العرب والعجم، الحكماء والشهداء في مشهد مهيب وموقف عصيب، ويرفع السائل إلى الله حاجته ويسمع النبي المصطفى شكايته فيعاتبني عتاب المحب لأمته.. ثم وضعه أمام محكمة الضمير الذي يصحبه بقية عمره: يا بني، لا تفضح أباك بين يدي مولاه.

نحتاج أن نربي أولادنا على الرقابة الذاتية منذ الصغر لتكون لهم خلقاً وطبعاً عند الكبر، ساعتها لن نحتاج إلى كاميرات المراقبة والمتابعة؛ لأن رقابة الداخل أبقى أثراً وأجدى نفعاً وأعظم أجراً.

ضمير الأمة:

شب محمد إقبال في رحاب هذا البيت الطهور بصحبة وتوجيه والده الوقور، فحمل رسالة الإسلام بين جوانحه، يطير به ويغرد بمبادئه، وكانت قضيته الكبرى وغايته العظمي، وقضى حياته في البحث عن أمجادنا العظام وأبطالنا الكرام الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي، سالت في شعره دموعه ودماؤه، وفاضت فيه مهجته ودعاؤه، زار قرطبة ووقف أمام الجامع ولم يجد المسلمين، وقد تحول المسجد إلى حانات من الخمر، ووجد العاهرات وهن في محراب المسجد؛ فبكى وجلس عند الباب وأنشد قصيدته الرائقة:

أرى التفكيـــــرَ أدركَهُ خمولِي ولَمْ تَبْقَ العزائم في اشـــــتعالِ

وأصبح وعظكـــمْ من غير نورٍ ولا ســـحرٍ يطلُّ من المقالِ
وعند الناس فلســـفةٌ وفكرٌ ولكن أين تَلْقِيـــنُ الغزالِي؟!
وجلجلة الأذان بـــكلِّ حيٍّ ولكنْ أين صَـــوْتٌ مِنْ بلالِ؟!
منائركمْ عَلَتْ في كلِّ ســـاحٍ ومســـجدكمْ مِنَ العُبَّادِ خالِ[1]

كان له قلم سيَّال، وفكر إلى رياض الإسلام ميال، وفي ديوانه عطر السماء خير مثال، نختم به المقال لموافقته مقتضى الحال:

نَـــم يـــا بُنيّ علـــى يدي إنـــيّ أُعِـــدّكَ للغـــدِ
إنـــي أُعّـــدك كـــي تُرى شِـــبلاً بظـــلِّ المســـجدِ
لِتكـــون جنـــديّ الهدى فـــي ظـــلّ رايـــةِ أحمدِ
كـــنْ يـــا بُنـــيّ موحّداً واخضـــعْ لـــكلّ موحّدِ
كن يـــا صغيري مِشـــعلاً يهـــدي بليـــلٍ أســـودِ
في معمـــلٍ فـــي محفلٍ في مســـجدٍ فـــي مَعهدِ
كن يـــا صغيـــري بُرعماً يَنمـــو بغصـــنِ محمد[2]

إن هذه النفحات الربانية والجرعات الدينية النقية لهي الدواء الناجع للبشرية، وعلى حين غفلة من العواد وزحام الرواد غربت هذه الشمس المباركة التي ملأت القلوب حرارة ونوراً، وعزة وشموخاً.

(١) روائع إقبال للندوي، ص ١٢٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

بين القيادة والسيادة

كلمة تكتب بماء العين قالها سفيان بن عيينة: «إذا رأيتم الناس قد أجمعوا على مدح رجل فاتهموه، وإذا رأيتم الناس قد أجمعوا على قدح رجل فاتهموه، فإن المؤمن بين مادح وقادح»[١].

من صفحات التاريخ الناصعة البياض صفحة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، داهية زمانه، ونابغة أقرانه، عظيم السجايا كريم العطايا، أحبه أهل السُّنة والجماعة، وأبغضه أهل البدعة والضلالة، فماذا عن صحيفة النسب وبطاقة التعريف به؟

يقول كتاب «السير»: أمير المؤمنين ملك الإسلام أبو عبدالرحمن القرشي الأموي المكي، خال المؤمنين، وكاتب وحي رسول رب العالمين، أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم «الفتح»، كان طويلاً أبيض جميلاً مهيباً أجلح، إذا ضحك انقلبت شفته العليا وأصابته لقوة آخر عمره، وكان من الكَتَبة الحسبة الفقهاء، ويضرب المثل بحلمه وعقله، مكث أميراً على الشام في خلافة عمر، وعثمان، عشرين سنة، ثم خليفة للمسلمين مثلها، توفي بدمشق للنصف من رجب سنة ستين، وصلى عليه الضحاك بن قيس الفهري، وعاش معاوية ثمانية

(١) أرشيف ملتقى أهل الحديث، ج ١٠٦، ص ١٩٠.

وسبعين عاماً، وقيل غير ذلك ﷺ»[١].

بين التقدير والتقتير:

أبو سفيان صخر بن حرب، في الحسب والرأي الأريب، بدر أرومته وعز عشيرته، سيد مطاع في قومه، يسمعون قوله، ويصدرون عن رأيه، وحياته في بيته تدور بين التقدير والتقتير، وصفته زوجته بأنه رجل مسيك أو شحيح، وأنها تصيب من ماله بغير إذنه، فقال لها المعصوم ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[٢].

وهو سيد في بيته كما كان سيد عشيرته، وأنه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن أهله وكاهله، ومن أبرز ملامح شخصيته التي جعلته جديراً بزعامة قريش الدهاء والحكمة؛ وظهر ذلك في موقفه يوم «بدر» وفراره بالقافلة، والشجاعة والإقدام؛ وظهر ذلك في موقفه يوم «حنين» وعدم فراره من المعركة، ونال شرف الصحبة وشرف المصاهرة، وغفر الله له ما كان منه.

والدهاء والحكمة أعظم موروث ورثه معاوية من أبيه، وقد استطاع بحكمته ودهائه أن يملك قلوب أعدائه قبل أصفيائه، وأصبحت «شعرة معاوية» نهجاً قويماً وطريقاً مستقيماً لكل من سار على منواله.

كلما يممت وجهي ناحية كتب السيرة، لا سيما عند مطالعة بيعة النبي ﷺ للنساء، يصيبني الدهش والعجب من عقل هند بنت عتبة ﷺ، وسرعة بديهتها،

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).
(٢) صحيح مسلم (١٧١٤).

وصفاء قريحتها في الرد على كلام المعصوم ﷺ، فقد بايعهن على «ألا يشركن بالله شيئاً»، قالت هند: وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله من الرجال؟ «ولا يسرقن»، قالت: والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا يدري أيحل لي ذلك؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضي وفيما غبر هو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟»، قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك.

قال: «ولا يزنين»، قالت هند: وهل تزني الحرة؟ يعنى أنها تعاف الزنى في الأصل أنفة، فلما قال: «ولا يقتلن أولادهن»، قالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم «بدر»؛ فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ[1].

فمن هي التي كان يقول عنها معاوية مفاخراً: «أنا الذي ربتني هند»؟! هي هند بنت عتبة، من عقلاء النساء، ومن أصوبهم رأياً وأقواهم حكمة ورشداً، كانت فصيحة جريئة صاحبة رأي وحزم وجلد وعزم في الجاهلية والإسلام، اتصفت بالجسامة والوسامة والمكانة بين قومها وذويها، فليست من عداد الأمهات المنسيات في الغمار، يبدو ذكاؤها الوقاد وحصافة عقلها في حسن سبرها للرجال، فقد قالت لأبيها عتبة بن ربيعة: يا أبتِ، إني قد ملكت أمري، وذلك حين فارقها الفاكه بن المغيرة، فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليَّ، فقال: ذلك لك، أسلمت في «فتح مكة» بعد إسلام زوجها بليلة واحدة.

(١) البداية والنهاية (٦/ ٦١٨).

التربية على القيادة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: رأيت هنداً بمكة كأن وجهها فلقة قمر، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبي يلعب، فمر رجل فنظر إليه فقال: إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه، فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله، وهو معاوية بن أبي سفيان، ونظر أبو سفيان يوماً إلي معاوية وهو غلام فقال لهند: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط؟! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة[1].

ما أروعها وأعظمها وأفصحها وأعقلها! لقد نسجت خيوط شخصيته وملامح عظمته ومؤهلات قيادته منذ طفولته، فرجولة الطفل تبدأ من صغره، وتشب معه في شبابه وكهولته وهرمه، ومعاوية ورث من جانب أمه أكثر مما ورث من جانب أبيه، فهو أشبه ما يكون بها في الوسامة والجسامة، ربته على القيادة والسيادة، فتحقق قولها وأثمرت تربيتها وساد ولدها، وامتد الحكم الإسلامي في عهده ليطول المشرق والمغرب، وكان يتكلم مرتجلاً؛ فيحسن الجواب في مقامه، والكلام في أوانه، وبلاغته سوية لا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه، وأما عن الحلم فبابه الأهم وميدانه الأعم، وبه ساس العرب والعجم.

وفي القلب كلمة لا بد أن تقال: ما أجمل أن نتدارس مع أبنائنا جوانب العظمة والقيادة ومواطن السيادة والريادة في هذه الشخصية الثرية صاحبة الفتوحات القوية والإشراقات الندية؛ لينهلوا من معين مائها، وعذب فراتها، وتكون لهم نموذجاً يُحتذى، وأثراً يُقتفى!

---

(١) المرجع السابق (١١/ ٣٩٨).

بين الإيذاء والإغضاء

كلمة ماتعة تحدد ملامح شخصية معاوية بن أبي سفيان ﷺ قوله: «لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم»[١]، فالحليم أرحب الناس صدراً وأطولهم صمتاً وأعمقهم فكراً وأصوبهم رأياً، يعفو في موطن القوة، ويتجاوز وبيده الغلبة، ويحسن رجاء الرأفة والرحمة.

يقول ابن حبان: «الحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام، وهو يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتثبت، ومن يتصف به يكون عظيم الشأن، رفيع المكان، محمود الأجر، مرضيّ الفعل، ومن أجل نفاسته تسمى الله به، فسمى نفسه حليماً»[٢].

ولقد كان لمعاوية من الحلم النصيب الأوفى والغاية القصوى والمكانة الفضلى، ساد الناس بالحلم، وقادهم بالعلم، ومن صحب الناس بلسان صادق وعاملهم بحسن الخلائق فقد أرضى المخلوق والخالق.

من الآيات القرآنية المباركة التي تدفع صاحبها إلى التحلي بالحلم والتخلي عن الانتقام والظلم قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٤-٣٥]، وعن تفسيرها

(١) الإحياء (٣/ ١٧٨).

(٢) روضة العقلاء، ص ٣٠٨.

وبديع ما فيها يقول صاحب «الظلال»: «إن الحسنة لا يستوي أثرها كما لا تستوي قيمتها مع السيئة، والصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر برد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة فتنقلب من الخصومة إلى الولاء، ومن الجماح إلى اللين.

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)؛ وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجح إلى حياء على كلمة طيبة ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام، غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد، وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها، حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفاً، ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقاً»[1]، وهذه القاعدة هي قطب الرحى في حياة معاوية.

إياك وبطشة الأسد!

الحلم والدهاء صفتان كريمتان، وخلّتان عظيمتان تميز بهما معاوية بن أبي سفيان، وسار بذكره الركبان، فقد كان جالساً يوماً فدخل عليه رجل اسمه الجهم، فسأله معاوية: أتراني أكبر منك سناً أم أنت أكبر؟ فقال له الجهم: يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ تقدمت لخطبة أمك حينما رأيتها جالسة، وقامت لتدخل في بيت أبيها، فأعجبني ما رأيت من تقاسيمها وعجيزتها، فسبقني إليها أبو سفيان، وسكت.

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣١٢٢).

فقال له معاوية: رحم الله هنداً، لقد كانت تنتقي الرجال، ثم وضع له طعاماً، فلما أكل الرجل قال: يا غلام، عليَّ بأربعين ألفاً، فأخذها وأعطاها للجهم، ثم قال له: خذ هذا المال فتقوَّ به على حياتك، وإياك أن تقترب من الملك، فإن الملك يسرع في الغضب سرعة الأطفال، ويبطش بطشة الأسد، وإياك أن ترجع لمثل هذا، فقبَّل الرجل رأسه وقال: جزاك الله عنا خيراً من أمير، فوالله لقد كنتُ أختبر حِلمك، وقد رأيتك خليقاً بالإمارة.

ونغضبـــــه لنخبـــــر حالته فنخبـــــر منهما كرمـــــاً ولينا

نميل علـــــى جوانبـــــه كأنا نميل إذا نميل علـــــى أبينا[1]

من فقه الكبار أن الوقائع أصدق من إطراء المادح، وغمز القادح، وفي هذه الواقعة عدة دروس تربوية هادفة، منها:

أولاً: هذا سؤال لطيف من معاوية العفيف، وجوابه غليظ عنيف، سلقه الأعرابي بألسنة حداد وعبارات شداد يأنف منها الحاضر والباد، فجاء رد معاوية هادئاً هدوء النسيم، وبلسماً كدواء السقيم؛ «رحم الله هنداً، لقد كانت تنتقي الرجال»، لديه القدرة على الإيذاء والأخذ بالسطوة، لكنه جنح إلى الإغضاء وإنزال الشفقة، وهذا هو الحلم في أحلى تجلياته وأعلى كمالاته.

ثانياً: بذل جزيل العطاء مع شدة الجفاء، وغاية الكرم مع وخز الألم؛ «خذ هذا المال فتقوَّ به على حياتك»، وهذا نهج العظماء وسبيل الكرماء.

ثالثاً: مقام الإمارة عظيم وخيره عميم ويحتاج مع الحلم إلى الحزم، ومع

(١) العقد الفريد (١/ ٥٠).

اللين إلى العزم، وكم قلّمت عصا الحزم من أظافر الإجرام والعصيان والزور والبهتان! «وإياك أن ترجع لمثل هذا».

رابعاً: عاقبة الحِلم جميلة، وثمرته جليلة، أذعن له الأعرابي بالفضل، وقبَّل رأسه بالعدل، ولهج بالثناء عليه، وجدد البيعة بين يديه؛ «لقد كنت أختبر حِلمك، وقد رأيتك خليقاً بالإمارة»، ويبقى الحِلم خلق الأقوياء وطريق الأمناء.

قمة الإنصاف:

العلَّامة ابن أبي الدنيا ألَّف كتاباً ممتعاً عن حلم معاوية، ذكر فيه نماذج كثيرة عن حلمه مع محبيه ومخالفيه، مادحيه وقادحيه، أما الإمام الحافظ الذهبي فقال كلمة عن معاوية غاية في الإنصاف والتجرد، أشاد فيها بحلمه وعلمه، علها تكون للناس نبراساً منيراً وطريقاً قويماً.

قال: «حسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم وهو ثغر فيضبطه ويقوم به أتم قيام، ويرضي الناس بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألم مرة منه، وكذلك فليكن الملك، وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله، وفرط حلمه، وسعة نفسه، وقوة دهائه ورأيه، وله هنات وأمور والله الموعد، وكان محبباً إلى رعيته، عمل نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يهجه أحد في دولته، بل دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم[1].

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٢).

وإنك لتعجب من حكمته وقدرته على استيعاب الخصوم وتصحيح مفاهيمهم المغلوطة وإبطال دعاويهم الفاسدة التي تدعو إلى الفتنة وتفكيك الصف وتمزيق الوحدة، وهذا ما امتاز به معاوية؛ اتبع الحزم، واتبع الحلم.

ورحم الله أمه التي رأت فيه من الطفولة مخايل النجابة ومؤهلات الريادة!



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
دروس ملهمة للأسرة المسلمة	٧
زهرة من بستان السُّنة:	٧
صاحب البصمة الأولى	١٠
إيحاءات القرآن الكريم ودلالته:	١١
بين الفضيل وولده:	١٢
رسالة للمربّي:	١٣
حجر الأساس:	١٣
المحاضن التربوية الداعمة للأسر المسلمة	١٥
درة في جبين التاريخ:	١٥
نهر العطاء الرباني:	١٨
من نفائس الحكمة.. بين الآباء والأبناء	٢٠
صيانة السر:	٢١
الغيبة مرعى اللئام:	٢١
الكذب البهرج الخداع:	٢٢
بين الأمانة والخيانة:	٢٣

التربية بالقدوة.. بين المدارسة والممارسة ٢٥
ليلة هنية بصحبة خير البرية:..... ٢٦
الهمم.. بين العزائم والهزائم ٣٠
صحيفة النسب الطيب: ٣٠
همة ترمي إلى جنة الخلد: ٣٢
الصبر بين الإقدام والإحجام..... ٣٥
وضوح الهدف ونُبل الغاية: ٣٦
دروس تربوية:..... ٣٧
الاستثمار الأمثل! ٤٠
بين التقويم والتحطيم:..... ٤١
الوصية.. بين الإنصاف والإجحاف..... ٤٤
التربية بالتقوى:..... ٤٤
الأم والتربية بعصامية اليُتْم..... ٤٩
روافد التكوين:..... ٥٠
الذكاء والإباء:..... ٥١
بين وهج البدايات وإشراق النهايات..... ٥٤
غــلام في حكمة الشيوخ:..... ٥٥
الأم الرؤوم:..... ٥٦
التربية الإيجابية بالرسائل القرآنية..... ٥٩
النسب الزكي:..... ٦٠
بين المعاني والمباني: ٦٠

فقه الرسائل القرآنية: ٦٢
التربية بإحياء الضمير الغافي **٦٣**
الرقابة الذاتية: ٦٤
ضمير الأمة: ٦٥
بين القيادة والسيادة **٦٧**
بين التقدير والتقتير: ٦٨
التربية على القيادة: ٧٠
بين الإيذاء والإغضاء **٧١**
إياك وبطشة الأسد! ٧٢
قمة الإنصاف ٧٤
فهرس الموضوعات **٧٧**



AR WWW.MUGTAMA.COM
EN WWW.EN.MUGTAMA.COM